منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

بشير مفتي

دُميَة النّار

رواية

www.mlazna.com

www.mlazna.com-رياح الشرق

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-614-01-0048-0

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف
Editions EHkhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

لتنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الروائي

التقـــيت بطـــل هـــذه الرواية السيد رضا شاوش، وأنا في الرابعة والعشرين من عمري. كنت حينها في عز شبابـــي واندفاعي للحياة، أو ما كنت أنظر له حينها على أنه الحياة، كان ذلك في أواخر شهر سبتمبر مـــن عـــام 1985، تلـــك الفتـــرة التي كانت حينها واعدة رغم البؤس الاجتماعي المفرط والذي كان يحيل أكثر الأحلام شراسة إلى رماد رميم، غـــير أن تلـــك الفترة التعيسة، رغم كل شيء، كانت تمثل بالنسبة لي بـــداياتي في درب الكـــتابة، وكـــنت تحت تأثير قراءات شيطانية كثيرة ومتـــنوعة، وفي كـــل الأصناف والأنواع الأدبية أشعر أنني سأملك تلك الحقيقة الكليّة للأدب، كنت مدفوعًا بسحر جنوني إلى هذا الطريق، كان الأمـــر يـــبدو وكأنـــه شيء يمكن ان يتحقق في يوم من الأيام، لم أكن مـــتعجلاً لـــبلوغه كما قد يتصور البعض، كنت أنظر له على أنه شيء ســـيحدث وكفـــى، يوما ما كنت سأحقق وجودي الحقيقي ككاتب، وليس كأي كاتب عارض، ولكن ككاتب يستحق هذه التسمية بالفعل، وبالـــرغم من أنني لم أكن قد كتبت في تلك السنوات أي شيء يستحق الذكر، إلا أنني كنت أشعر تحت تأثير الكثير من القراءات الغزيرة، والآثمة بـــأن هناك شخصًا آخر يسكن بداخلي، شخصًا آخر يقطن في رأسي، (ربمـــا يعود ذلك لانفصاميّتي الغريبة)، هو الذي يملي عليّ ما كتبته من قصص لم تكن تتجاوز الصفحتين في أحسن الأحوال، وإن صار يظهر لي

www.mlazna.com-رياح الشرق

كـــل ذلك عبثيا ومخيبا الآن إلا أنني كنت أعتبره بداياتي التي سأدخل بها الوجـــود الأدبـــي، هذا الفردوس الغريب، الذي كنت مستعدا من أجله علـــى تلقي كل عقوبات الحياة، ولو عاد الزمن للوراء لمسحتها طبعا من صـــفحات ماضيّ الأعمى، لا لأني نادم عليها الآن، و لم أعد أطيق حتى النظـــر إلـــيها، ولكن لأنها كتبت على عجل، وبتهور شديد، وبنـــزعة تقليدية ما في ذلك شك لمن قرأت لهم حينها..

عـــرفت رضا شاوش وقد تجاوز الثلاثين بأربع أو خمس سنوات، كـــان يبدو أكبر من سنه، دقيق الملامح وذا وجه يثير الحيرة والتساؤل، غير أن ما شدني إليه لم يكن شكله، ولا نظرته المرتابة من الآخرين، ولا لأنـــني لاحظـــت أنه كان يطأطئ رأسه باستمرار كلما سقطت نظرة غريب عليه كما لو أنه يحاول إخفاء جرح عميق في صدره، ولأنه كان يحـــب الكلام في الأدب، كان ذلك هو الطُعم الذي حرك فضولي أول الأمـــر ثم شـــعرت بـــشيء قريب من الحدس أنه سيفاجئني بالتأكيد، تكهـــنت له بالانتحار لاحقا، لقد كان مثل تلك الشخصيات الروائية الـــتي تملـــك ماضيًا معقدا، وتجربة مُرة في كل شيء، وهي على شفا جرف من السقوط في أرض الليل التي لا قرار لها.. تخيلته بطلا تراجيديا يصلح للموضوعات التي كنت أرغب في كتابتها، قلق ميتافيزيقي حاد، واختلال في الروح، وسوء تكوين مهلك، وجروح قديمة لا تندمل، لقد حرك فضولي دون شك، وقررت من يومها مطاردته كما يطارد محقق خاص مجرما ارتكب جريمة استثنائية، وفشلت الشرطة في القبض عليه، لم ييأس من كل مشاق التحقيق الطويلة لأن دافعه لم يكن إثبات الجرم بالأدلة التي يفرضها أي تحقيق قانوني، لكنع الحدس الغامض كان يدفعه للتعـــرف عليه، من أي طينة هو؟ وكيف ارتكب جريمته تلك دون أن يقدر أحد على كشفه؟

إنـــني إذ أتذكر تلك السنوات فأنا أتذكرها بفرح غامر، وبسعادة حقيقـــية، وبألم كذلك، لقد كنت متوهما وليس ملهما، وحبيس خيالي أكثر مما كنت أسير وفق خطة واقعية واضحة المعالم، وأعتقد اليوم أنني كنت مثاليا جدا، ولم أكن أفهم في مسائل الخير والشر الشيء الكثير، كمـــا لم أكـــن أعي حينها ما كان يحيط بـــي، وأي وهم هو الأدب عـــندما نعقـــد علـــيه الآمال الكبيرة في إنقاذ أرواحنا من هلاك المعتاد والروتيني الممل، نصدقه فنندفع خلفه بكل حماس وحبور بادئ الأمر ثم ســـرعان ما نشعر أنه فخ لا نجاة منه، وأن الوصول لتلك الغايات يبدو مستحيلا دائما، فتتحول كل خطوة نخطوها بمجرد قطرة في بحر ليس له بداية ولا نهاية، أو ذرة رمل في صحراء ليس لها حدود.

كنت أظن في تلك السن البعيدة، أن الأمر متوقف على شيء آخر خـــارج ذاتي وخـــارج العالم من شأنه مساعدتي على الدنو من منطقة الأدب المغـــرية والعـــسيرة، وكنت قرأت ربما في رواية لكاتب فرنسي يدعـــى آلان نادو أن الأدب يشبه تلك المرأة التي تمارس الستريبتيز (لا أدري كـــيف تترجم للعربية؟)، أحيانا تكشف للبعض عن جانب فقط من جسدها وأحيانا عن عدة جوانب، ونادرا ما تكشف كل شيء إلا لمـــن تشعر أنه يستحق ذلك، أو تعتقد أنه مؤهل للشغف الكلي بمنظر كذاك المنظر..

قلت، في هذه الفترة بالذات تعرفت على رضا شاوش، عند رجل اسمه العربـــي بن داود والجميع يناديه بعمي العربـــي، كان قد فتح بيته لجمـــيع المـــشاغبين، أو من يراهم كذلك، في السياسة والفن والأدب، وكـــان يـــسهر علـــى راحة كل من يزوره فيهديه كتباً، أو قنينة نبيذ يحضرها له ضيوفه، أو شيئا من أريج الكلام الذي يلهج به لسانه. كان رجـــلا مـــتقدما في السن، لم يتزوج، ولم يكن له أي ولد، وسمعنا عنه

قصصًا كثيرة، أنه كان مجاهدا أيام الثورة، ومعارضًا بعد الاستقلال، ودخل السجن، وشرد، وعذب، وغير ذلك، وأنه بقي وفيًا لمبادئه، ومعارضا لخصومه، ومنتقدا للنظام، وأن كل ذلك كلفه غاليا فترك مهنة الصيدلة التي كان يعمل بها إلى تصليح الأحذية لفترة غير قصيرة ثم عاد لمهنته بعد نهاية السبعينيات ورحيل الرئيس هواري بومدين الذي كان يمقته أشد المقت، ونادرا ما يمدحه، لم أكن أقاسمه نفس الرؤية لصغر سني بالتأكيد حينها، أو لأنني كنت أشعر أنني تعلمت في المدرسة بفضل مجانية التعليم والاشتراكية التي تركت بصمتها علينا نحن الجيل اللاحق لما بعد الاستقلال، وكنت أذكر دائما أن والدي كان يقول أشياء حميدة عن هذا الرئيس حتى رحل أو قتل، فلقد بقيت شائعة تسميمه تلوكها الألسن لفترة طويلة، ووالدي كان مثل الناس البسطاء الذين يؤمنون بقوة الشائعات وفكرة المؤامرات، ولا يصدقون أن الرجل مات بسبب مرض خبيث لاغير، لكن ذلك لم ينقص من تقديري لعمي العربي الذي وجدت في كلامه خير زاد في سنوات شبابي تلك، وخاصة أنه كان متفتحا ومستمعا جيداً ولم يكن السن حاجزا بينه وبيننا نحن الشباب الصغار الذين كنا نثرثر وكأننا نملك مفاتيح العالم، ونقدر على تغيير أي شيء نريد تغييره، بالرغم من الفقر والبؤس الذي كنا نعيش فيه وبقينا بداخل أدرانه نتلوث يوما بعد آخر.

لقد لقيت رضا شاوش خلال إحدى السهرات التي أقامها عمي العربي ببيته في حي بئر مراد رايس وكان في الخامسة والثلاثين أو أكثر، مستقيم الجسم، ذا عينين باردتين نوعا ما، ونظرة متأدبة فلم يرفع نظره نحو أي أحد كما لم يحاول أن يختلط بنا وبدا كأنه محرج من وجود هذا العدد الكبير من الناس، وكان يبدو على صداقة عميقة مع عمي العربي الذي سرعان ما اختلى به على جانب ورأيتهما

www.mlazna.com-رياح الشرق

يدردشـــان بـــصوت منخفض لم يصلني منه أي شيء ثم عادا للصالون وجلـــسا قـــرب بعضهما البعض، وكنت أنا هناك وفجأة قدمني لرضا قائلا:

- لا أدري لمـــاذا يذكـــرني بشير. م بك أيام كنت شاباً، وتعلم بالكتابة.

ابتسم رضا وحدث معي نفس الشيء، وقلت مصافحًا:

- أهـــم مـــا يرضيني عند عمي العربـــي أنه يعرف كيف يجمع الناس بحسب هواياتهم.

فرد رضا قائلا:

- بالفعل..

ليسألني بسرعة:

- هل تكتب؟

- نعم أكتب، ولكن أقرأ أكثر. مازلت في البداية، لا أعرف إن كان ما أكتبه ذا قيمة أم لا؟

- صـــحيح، هـــذه هي المشكلة.. أحيانا لا نعرف الجواب حتى تنتهي أعمارنا..

أكـــدت لـــه ذلـــك، وأفرغت ما بقي في كأسي من نبيذ أحمر، وكانت تلك هي المرة الأولى التي ألج فيها عالم الشرب بدافع التقليد لا غير، لأسأله بعدها:

- وأنت لماذا توقفت عن الكتابة؟

رد مـــتمهلاً هذه المرة، وهو يبتسم، ابتسامة غامضة بانت بشكل عابر للغاية:

- هذا لأنني لست كاتبًا.

ليضيف بعد صمت قصير:

- أعـــدك أنـــني لـــو كتبت شيئا سأمنحه لك عن طيب خاطر لتقرأه.
- سأكون جد سعيد لذلك.
- لست متأكدا أنني سأفعل هذا ذات يوم، ولكن من يدري..

ليقوم فجأة من مكانه، ويعتذر منصرفا للخارج، أظن أنه ترك أثرا على روحي حينها، استفسرت عمي العربـــي عنه إلا أنه تهرب قدر ما يمكـــن مـــن أسئلتي وراح يتكلم عن سنوات السبعينيات المقيتة كعادته دون أن يذكر أي شيء عن رضا شاوش الأمر الذي ربما زاد من رغبتي في معرفته أكثر.

* * *

كانت تلك هي بداية معرفتي بهذا الشخص الذي استأثر باهتمامي فجأة كما لو كان موضوع رواية رغبت في تتبع أطوارها ومسارها منذ النـــشأة حتى النهاية، إلا أن الحظ لم يسعفني بلقائه إلا مرات قليلة تعد علـــى أصـــابع اليد، لكن في كل مرة كنت ألتقيه فيها، كان يزيد من شـــغفي بالتعرف على شخصيته واكتشاف أسراره، ورغم أنني ربطت ذلك بالجانب الأدبـــي الذي يسكنني إلا أنني كنت أنظر إليه على أنه شـــخص مختلف، أو عصفور نادر كما يقال، وأن هذا النوع من البشر يملـــك شيئا يميزه عن غيره، ولا يجب تفريط فرصة التعرف عليه أكثر فأكثر كلما سنحت الظروف بذلك.

غـــير أن ذلك لم يحدث بالصورة التي رغبت فيها، رغم اندفاعي للتعـــرف على الناس في تلك الفترة من حياتي متوهما أن الأدب هو قبل أن يكـــون كذلك تجارب في الحياة، ربما كنت وقتها تحت تأثير ذلك الكاتـــب الأمريكي المتشرد جاك كيرواك وبطل روايته "على الطريق"

حيث الحياة لقاءات ومصادفات تولد بالضرورة شيئا اسمه الكتابة بعدها.

لن أفضح نفسي إذا قلت أن ما كان يهمني قبل كل شيء ليس الناس في حد ذاتهم، ولكن ما يمكن أن يخلقوه بداخلي من توتر وقلق، أو حيرة وتأمل، أو رغبة في البحث والاكتشاف، أي ما يولدوه من رغبة في الكتابة لا غير، كما لو أنني وأنا لا أزال في طور البدايات الجنينية الأولى كنت أعد نفسي بمستقبل زاهر في عالم الكتابة الروائية والتي كنت مستعدا للتضحية من أجلها بأي شيء. ألَمْ أقُم بتطليق عالم الميتافيزيقا الذي كنت مستريحا داخله ومطمئنا كل الطمأنينة بين أحضانه، ألم أهجر عائلتي هجرة شرسة ولعينة، لأعيش متنقلا بين بيت صديق شاعر كان قد تكرم علي بسرير نوم مقابل أن أدفع له مرة أو مرتين في الشهر خبطة حمراء تنسيه العالم وما فيه.. وبيت امرأة مطلقة كانت تتكرم عليّ بمتعها الحسية العميقة والمجنونة، مستلهما منها حرارة الجسد في برد الشتاءات القارصة، لقد كنت بداخلي مستعدا لكل المهلكات التي لا يمكن أن يواجهها أي إنسان من أجل جملة واحدة تبلغني مقام العلى وترفعني للفرحة السرمدية، فرحة الإبداع التي ما بعدها فرحة أخرى..

لقد خلق رضا شاوش تلك الرغبة الجامحة في التعرف عليه، في البحث عن ماضيه، وحكايته مع الحياة، في السؤال عنه، لكن كما لو أنني لم أكن متسرعا للقبض على ما يخفيه عني وعن الآخرين وربما حتى عن نفسه، تركت الأمور تسير على ما تقرره الصدف والسياقات، وبداخلي بقيت متأكدا من أن شيئا ما سيربطنا بالتأكيد، أو سيجعل قدره مرتبطا بقدري، أما كيف، ولماذا سيحدث ذلك فلم تكن عندي أدنى إجابة.

* * *

في المرة الثانية التي قابلته فيها كان ذلك بطلب منه، حيث دعاني لشرب قهوة، فذهبت نحوه مسرعًا وجلسنا بمقهى "حليب إفريقيا" بساحة أودان. كان المكان ضاجًا بالزبائن الماكثين، والناس العابرين، حيث وجدت رضا ينتظرني هناك، جالسا لوحده يتأمل. لا أخفي أن منظره أوحى لي بتفكيرات غريبة كأن يكون جاسوسًا، أو منخرطا في سلك خطير، وأنه مصدر معلومات مهمة، يختزنها في مكان ما من عقله الباطن، وأن ذلك كان كفيلا ان يثير اهتمام شاب مثلي بدأت تنشر له الجرائد الحكومية بعض النصوص والمقالات القليلة، تقاضيت عليها أجرا زهيدًا مكنني أيامها من الشعور بالفخر والاعتزاز، ومن أكل لحم مشوي عند أحد المتخصصين في شواء اللحم على الجمر بحي "العقيبة". جلست قبالة رضا شاوش فسلم عليّ، وطلب لي قهوة، تكلم إلا في أشياء غير مهمة كجمال الطقس، وحلاوة العيش في هذه المدينة، فبدا لي الأمر غريبا، أن يدعوك إنسان لكي يتحدث إليك عن أمور بلا أهمية، لكنه سرعان ما سألني عن كتاباتي الأدبية فرحت كعادتي أطنب في شرح الأشياء التي لا تشرح في الحقيقة، وأخبرته عن قراءاتي أكثر وحبي للأدب، الأمر الذي جعله يبتسم ويوحي لي بأنه شغوف هو أيضا بهذا العالم دون أن يخفي حسرته على أن ذلك كان في زمن مضى، وليس الآن، وأن قدره الأدبي قد انتهى في تلك الأيام، أو مات موتا نهائيا، وأنه الآن يعيش بفكرة أن الحيوان الأدبي الذي عاش في ثوبه لفترة قد توفي بالفعل، وبسذاجة شاب رحت أنصحه أن لا يكترث بهذه الأمور، وأن الأدب شيء يمكن أن ينبثق في الإنسان في أي لحظة، فعاد للابتسام، ولم أفهم سر تلك الابتسامة التي بدت مزيجا من السخرية والتحسر، كاظمة نوعا من الألم الخفي عن الأعين، ثم ظننت أن ذلك ليس إلا بداية ليتحدث في الموضوع الرئيسي، أو ما

www.mlazna.com-رياح الشرق

ظننـــته دعاني لأجل الحديث عنه، إلا أنه لم يقل شيئاً محددًا، لقد بقي يحوم حول مواضيع كثيرة، ومتعددة، حتى أنه سألني عن رأيي في الدين، وهو يستدرجني بطريقته الذكية في إثارة القضية:

- لم يكـــن الـــدين في فترة شبابـــي مهمًا، بل كنا نعيش فورة اللادين، لكنني الآن أشعر أنه صار يشغل وجدان الناس.

فاجأني الموضوع، ولم أجد بما أجيبه، ولم أستطع كذلك أن أردد أمامـــه ســـيرتي المتقلبة بين الإيمان والجحود، أنا الذي نشأت في محيط ديـــني، وعائلـــة تقليدية، محافظة ومتمسكة بالدين كثابت رئيسي في حـــياتها، وركنا من أركانها التي لا تناقش، لكنني شاطرته الرأي في أن هـــناك شيئا ما يحدث بالفعل، وأنه لأمر يثير الحيرة والغرابة في الوقت نفـــسه، فعـــاد يسألني لماذا؟ وهنا توقفت عن الكلام ورحت أصف له وضعيتي الروحية:

- لقـــد تدهـــورت بـــشكل مروع بالفعل لأنني بدأت متدينا بالفطـــرة، والتقليد، والتعود، والأمر والنهي وحتى الزجر من طـــرف الوالد، ثم تمردت على كل ذلك، ولم أعد أطبق أي شيء من تلك التعاليم، غير أن تمردي لم ينقذني من أي شيء، لقـــد كانت أبواب الحرية التي طرقتها مليئة بالقلق والتمزق، والتمـــرد ليس دائماً حلاً إن لم يكن مجهزا بإرادة قوية لمعرفة ماذا تريد من خطواتك القادمة..
- ألا تعتبر ذلك شيئا عاديا، وأنت في الرابعة والعشرين.
- بلـــى، شـــيء عـــادي عندما نقول إنها سنة الحياة عند البشر جمـــيعهم، ولكن عندما يصحب أي تمرد شعور بالخواء فهذا مخيف لأنك تستطيع تدمير نفسك وما حواليك..
- لم أستطع فهمك جيدا.

- أقصد أنني واع بحالتي فقط لأني ربطتها بالأدب، وبحبي للكتابة ويمكن لهذا التمرد أن يجعلني أكتب، وهذا ما يريحني بعض الشيء لكن لا أخفيك أنه قبل ذلك كانت سكينتي الروحية، رغم تشوشها أيام المراهقة، مريحة لي، وكنت أشعر، رغم لا مبالاتي بها الآن، أنني كنت سعيدا فقط عندما كانت علاقتي متوافقة مع الدين..

بعدها عدت للصمت بينما شعرت أنه راح يفكر في كلامي، أو يحاول أن يسجل في دماغه كل ما قلته عن نفسي، وربما انتبه إلى أنني لم أقل له ما أراد سماعه حينها، فلم يشأ أن يزعجني من جديد بالحديث عن موجة التدين التي بدأت تغزو الأحياء الشعبية والإقبال المهول على المساجد والإحساس بأن الخلاص الحقيقي لن يكون إلا بالدين، وليس بغيره.

آثر الصمت بدوره فيما غطست أنا في قعر ذاكرتي أيام الصلاة والتعبد الذي كنت أقوم به دون أن أفهمه، أو ربيت على أدائه دون فهم "قُم للصلاة"، هكذا كان يصرخ والدي، فأقوم طائعًا منحني الرأس، خائفاً من العقاب الذي ينتظر من يخالف أوامر الله، وقد قرأت كتبا، أحضرها أحد إخوتي الذي انتمى لتيار إخواني أيامها، عن أهوال القيامة وعذاب الآخرة، غير أن ما كان يرعبني أكثر هو عذاب القبر، كانت كل فرائصي ترتعش، وروحي تبتئس، وقلبي يخبو، ويتلاشى ماءه وأضيع في ذلك الرعب الذي لا مثيل له..

قام رضا فجأة معتذرا أن ثمة عملا ينتظره، وقال إنه سيطلبني للتحدث معي في أمر مهم، صافحته مودعًا دون أن أثق في كلامه عن أننا سنلتقي من جديد، لقد شعرت فجأة بعد حديثنا القصير أنه لن يتكلم معي ثانية، أو أنه لا يرغب في صداقتي بالمرة، مدركا كذلك أن

أشياء كثيرة كانت تفرقنا عن بعض ومعتقدا بداخلي أن لاشيء يجمعنا في الحقيقة، لا الروح، ولا الهاجس، ولا تجربة الحياة التي يعيشها كل واحد منا بشكل مختلف..

* * *

مع ذلك شغلني هذا الشخص، وسألت عنه عمي العربي أكثر من مرة فكان يجيب باقتضاب ويعطي معلومات بسيطة، ومرات يفضل عدم الكلام عنه، متعللا بكون رضا شخص غامض، وأنه يعيش في عالمه الخاص، ولا يجب أن أكترث له فأسأله مرة أخرى:

- لقد تحدثت معه في الأدب كثيرا، ولكنه لا يتكلم عن نفسه كما تفعل أنت.
- حقاً.
- كما لو أنه لا يريد أن يقاسم أحدا أسراره.
- ربما هو كذلك..
- ألا تريد أن ترضي فضولي قليلاً؟
- لا أظن، فقط يجب أن تعرف أنه مثلك تمرد في شبابه على والده، وقاوم جبروت سلطة عاتية حينها، وأنا أكبرت فيه تلك الشجاعة كثيرا، فلم يكن من السهل في ظل سلطة بومدين أن تقف ضد الحكم وتناصبه العداء.
- ماذا فعل بالضبط؟
- آه منك يا بشير.. أنت تسألني عن حياة شخص يفضل التكتم، وحتى أصدقك القول أنا أيضا لا أعرف عنه الشيء الكثير
- بل تعرف، وما تعرفه قد يساعدني على الإحاطة بشخصه.

www.mlazna.com-رياح الشرق

- ما الذي يهمك في أمره؟
- لا أدري.. هل تعلم، ظننته جاسوسًا؟

عـــندما نطقت "جاسوسًا" أطلق عمي العربـــي ضحكة كبيرة، وقال ساخرا:

- ماذا قلت "جاسوساً".. كيف خطرت ببالك هذه الفكرة؟
- لا أدري، مجـــرد حدس، شعرت أن وراء هذا الشخص حياة مليئة بالمغامرات والألغاز..

عاد عمي العربـــي إلى الضحك بصوت مرتفع ثم رد:

- حياته لم يكن فيها أي مغامرة، ثم هل تريد أن أقول لك شيئا حقيقـــيا عـــنه، إنـــه إنسان تعيس للغاية، وأكثر ما يميز حياة التعساء أنهم لا ينجحون في أي شيء يقومون به.
- لكنه يبدو بخير من الناحية المادية..
- لم أقصد هذا الجانب بالذات، لقد تحسنت وضعيته منذ فترة لا أدري كيف، أعرف فقط أنه صار يلبس بشكل أنيق ويسكن في بـــيت بأعالي حي حيدرة، وله حتى سائق خصوصي ولكن من الداخل هو دائما في حالة ألم..
- هل هناك سبب لهذا الألم؟

رغـــم أنني رأيت امتعاضا في تضاريس وجه عمي العربـــي، وأنا أكثر من طرح أسئلتي التي ظهرت له كأنها عملية استنطاق حقيقية، إلا أنـــه قـــال مع ذلك شيئا مهماً، وشعرت أن كل عُقد ذلك الشخص تجمعت في تلك الواقعة الأليمة:

- لقـــد توفي والده منتحرًا، وهو لا يزال شابًا في مقتبل العمر، كان انتحارًا مؤلما للغاية، وأثر فيه كثيرًا رغم اختلافه مع والده في كل شيء.

قالهـــا بصوت مرتفع، وصمت، ثم أمرني بتركه لأنه لا يرغب في المـــزيد من الحديث عن حياة هذا الرجل الذي يبدو أنه كان محيرا حتى لعمي العربـــي نفسه، فقبلت بما جادت به جعبته من أخبار حينها، وأنا مـــصمم على الذهاب إلى أبعد فأبعد، ولن يوقفني أي سد مهما كان منيعا أو عالياً.

* * *

تـــركت أمـــر رضا شاوش بعدها، أو تركني هو. لم أره قط لسنوات عديدة حتى أنني ظننت أنني تخيلت وجوده فقط، لقد قطعت أشواطا في الكتابة والحياة في تلك المرحلة الغريبة التي كان يسودها تذمر عام، وحالة من انسداد الأفق، ولم يكن أحد يستطيع التكهن إلى أيـــن تسير الأمور، حتى حدث الانفجار الذي هز البلد بأكمله، وكـــنت قـــد أنهـــيت لتوي دراستي الجامعية حينما بدأت تحدث الاغتيالات العجيبة في صفوف المثقفين، ثم راحت أخبار الانفجارات التي تقع في كل مكان من هذه الأرض الكبيرة تصل الآذان وأحيانا نـــراها مـــرأى العـــين، وقتها رأيت رضا شاوش جالسا في إحدى الحانـــات، كان بقرب أناس غرباء لم أتبينهم جيدا وإن شعرت أنهم ينتمون لتلك القوة التي نسمع عنها الكثير من الأساطير والحكايات أكثـــر مما نعرفها في الواقع، ولولا أنني كنت صحفيا وأعيش بملحأ للصحفيين قريب من تلك المدينة الأمنية التي صنعوها لأنفسهم، كي يحمـــوا حياتهم وحياة عائلاتهم من الحرب الشرسة التي اندلعت، لما قـــدر لي أن أدخـــل تلك الحانة التي كان يؤمها هؤلاء، ولم أخف ســـروري برؤيته، وظننت أنه سيفرح مثلي حينها برؤيتي، لكن لم يلتفت إليّ قط، بل حتى، وأنا أركز النظر إليه من طاولتي القريبة منه

لم أشعر أنه مهتم بـــي، وقلت بداخلي ربما نسيني تماماً، وإنني أنتمي لشيء قديم في حياته.

لم أكـــن حريصًا أيامها على تنمية علاقاتي برجال الأمن والسلطة رغـــم أنهم كانوا قريبين منا حينها، وكنا تقريبا نعيش في نفس الخندق، كـــنت أشعر بالنفور من تلك الدهاليز وكانت الكتابة هي ما يساعدني علـــى الحفـــاظ على ماء وجهي حينها، فانغمست في الإبداع الروائي انغمـــاس السجين في عزلته المفروضة عليه. وظهر لي رضا شاوش من هـــذه الفصيلة التي لا ترتبط بصحفي أو كاتب إلا لتستخدمه في لعبتها التي لم أكن متبينا قواعدها، وعندما لا يعرف الإنسان قواعد اللعبة فمن الأفضل أن لا يلعب أي ورقة لأن ثمنها سيكون فادحا للغاية على حياته وأمانته وصدقه مع نفسه.

عـــندما عـــدت ليلتها للفندق أو الملجأ كما كنا نسميه، ذهبت بسرعة لغرفتي، واستلقيت على السرير وبقيت أقرأ رواية "بيضة الثعبان" لـــبرغمان، وكـــنت أحس وأنا أقرأ بتفاعلات كثيرة يبرعمها إحساس بالاختناق وغياب لأي أفق ممكن، في سنوات الحرب العبثية التي لم يكن يظهـــر لي أنها ستنتهي في يوم من الأيام، سمعت طرقا على الباب، وكم كانـــت دهـــشتي وأنـــا أفتحه وأجد رضا شاوش أمامي يقف مسلمًا ومستأذنًا الدخول، فسمحت له، وأنا أخبره بما جال في خاطري عندما شاهدته في الحانة ضحك، وقال لي:

- أعـــرف، ولكـــن عندما أكون مع تلك الجماعة لا أحب أن تظهر علاقاتي الجانبية بأي شكل.

ثم جلس على السرير وتحدث معي مُجددًا:

- لقـــد فرحت رغم ذلك برؤيتك، وقلت هاهو أخيرا شخص مستقيم في عالم مليء بـــ..

دون أن يكمـــل جملته، ولكنني فهمت، وعرضت عليه أن نكمل زجاجـــة ويـــسكي كان قد أحضرها لي صحفي فرنسي زار الجزائر لـــتقديم ربـــورتاجات عن الوضع الأمني. وعندما أخبرته عن مصدرها ضحك وقال:

- حسنا سنشرب الويسكي الفرنسي في نخب الدم الجزائري.

ســـألته بعـــدها عن أحواله، فقال أمورا غير مهمة، وسألني عن أحـــوالي والأدب، فقلت بدوري أمورا غير مهمة، وبعد كأسين، راح يحـــدثني عن مخطوط يكتبه، وهو رواية كما يظن، أو سيرة خيالية، أو كما قال:

"لا أدري ما هي"

أظهرت له اهتمامي ورغبتي في قراءتها، وقلت له إنني لولا الكتابة لما استطعت أن أعيش للحظة واحدة، فكل شيء تحول لسجن.

قال: أفهمك.

ثم أضاف: الأمور لن تستمر بهذا الشكل، ستتغير بالتأكيد، لكن المستقبل بعد الحرب سيكون أكثر غموضاً.

ولم يستطل في الشرح، ثم عاد للحديث عن مخطوطه:

- لا أريـــد أن أعرف رأيك، كل ما أريده هو أن تقرأه، ثم إن أردت أن تنسبه لنفسك فسأكون شاكرا لك هذه الخدمة فأنا لا أستطيع حتى نشره باسم مستعار.

ليصمت بعض الوقت، ويغوص في حالة شبه حالمة وشاردة:

- إنـــه نص غريب، لقد حلمت دائمًا بكتابة رواية، وها أنا أفي بـــوعدي لنفسي على الأقل، لكن بقيت أمور لم تكتمل بعد، وقـــد أكملها إن لم أمت، ولكن سأرسل لك المسودة الأولى لتطلع عليها.

www.mlazna.com-رياح الشرق

- تأكد أنه سيسعدني ذلك.

ثم عرجنا إلى الحديث عن عمي العربـــي، وقال إنه تأسف كثيرا عـــندما وصـــله خبر الوفاة، وإنه كان رجلا شهما، وذا مبادئ عالية، لينهض من على السرير، ويستأذن بالانصراف..

لقـــد كانت تلك آخر مرة ألتقي فيها رضا شاوش، ولقد سألت عنه عشرات الناس فلم يعرفه أحد حتى ظننت أنني تخيلته بالفعل، أو أن عملـــه من السرية بحيث لا يعرفه أحد، ومضى على ذلك اللقاء عشر سنوات، وانتهت الحرب، أو توقفت لزمن معين، حينما حمل لي البريد ظرفاً بداخله مخطوط مع رسالة قصيرة جاء فيها:

عزيزي الروائي بشير. م

يـصلك هـذا المخطـوط وأنا ربما في عالم آخر، ليس بالضرورة المـوت، وإن كـنت لا أستبعد هذا، وفيه ما وعدتك به، المخطوط الـذي كتبته تأريخا لحياتي تلك، وربما ستجد فيه أشياء تدخل في عالم الخرافة والخيال، وقد تقول ما هذه التخريفات العجيبة، ولكن أتمنى أن لا تشغلك هذه الأمور عما فيه من حكاية هي قصة خيبة، وجـرح، ووهم، وربما الأسوأ من كل ذلك، هو أنها قصتي أنا بكل حـروفها الـسوداء، وأبجديتها الحارقة. إنها قصتي التي عشتها وتخيلـتها، وإنها ذاكرتي التي صنعتها وصنعتني في نفس الوقت، وإننـي لأتمنى صادقا أن تكتب اسمك في اعلى صفحتها، وتنسبها لنفـسك فـتكون بالنـسبة إليك كقصة خيال مروعة على أن يراها الـناس حقيقة مؤكدة.. مع أنني، من خلال ما عشت، لم أعد قادرا على التفريق بين ما هو خيال وحقيقة، واقع وحلم.. شكرا لك على التفهم، ووداعاً..

رضا شاوش

لقد أخذت أقرأ المخطوطة فهالني ما فيها من غرابة وسحر، وإنني رغـــم تحـــسري علـــى مسار هذا الرجل الذي دفعته الحياة إلى أقصى

الظلمـــات، سعيد لأنه كتب نصه هذا، وليعرف الجميع أنني أنشره من دون زيـــادة أي حرف، لقد كتبت هذا التقديم فقط لأنسب لنفسي ما كتبـــته أنـــا، ولأترك صوته يحكي قصته كما كتبها هو، وعلى لسانه، متمنـــيا طبعا أن يكون الرجل على قيد الحياة، وأنه سيقرأ كتابه كما تركه لي بلا أي تغيير أو رتوش..

رضا شاوش

الحـــياة قصة غريبة عندما تروى على لسان شخص سيودع الحياة بعـــد ثـــوان معـــدودات، فكل ما سيستحضره لابد أنه مجرد حنين لما سيفقده للأبد وما سيفقده هو بالضرورة كل ما كان عليه سابقًا.

أســـتعيد كـــل تلك الأشياء الآن، وأنا أبتسم، حياتي تبدو لي وكأنها مرت كالسراب، أو كاللعنة. يجب أن أعترف بأنني اعتبرت نفسي دائما شخصًا غامضًا ومجهولاً **(ليس تماماً، ليس بهذا الشكل. أقـــصد الحقيقة لا أعرف ماذا أقصد)** وكنت أعطي الانطباع لمن حولي بأنني كنـــز أسرار لا ينضب، وأنه من الصعب عليهم فهمي، **(حـــتى هذا ليس بالحقيقة الكاملة، كما لو أني في هذه اللحظة لا أعرف ماذا أقول)** وربما لهذا السبب لم يكن عندي أصدقاء كثر، أو عـــشت بـــلا أصدقاء تقريبا، والقلة التي عرفتها لم تكن إلا محطات قـــصيرة في وجودي، أما الحب فهو قصة أخرى، وهو من أجمل ما عشت بالتأكيد، ولكن عشته بكل ما فيه من جذوة الشوق، وألهار الألم **(أبالـــغ بالتأكـــيد)** وكنت إلى حد بعيد رومانسيًا جدًا **(يا للثرثرة الفارغة)** وكانت حياتي في الحب والعواطف مثل سيرة بحار تائـــه يبحث عن مرفأ آمن يستريح فيه بعد معارك مضنية مع البحر وهمـــومه. أعـــرف أنـــني أبالغ هنا، لتسحلوا عليّ ذلك، أبالغ في رومانسيتي وكلماتي، وأعتقد أن ذلك ينبع من خوف الرحيل، لنقل

أنني آمنت بالحب وصدقته، ولم أعشه، أو عشته بدون أن أتنعم به، لنقل ذلك فقط ونستمر..

لن أتحدث عن الحب فلا يمكنني اختصار كل شيء في من أحببت فقط، ولكن مع ذلك لن أتردد، في هذه اللحظة على الأقل، من التأكيد على أن الحب هو أهم شيء يمكن أن يحدث للإنسان في الحياة، بل سأجزم بالقول إنه من لم يحب ولو مرة واحدة في حياته فليقرأ على روحه السلام، ولا داعي لأن يقول أمامكم إنه عاش عيشة حقيقية..

* * *

وُلدت في حي شعبي، اسمه "بَلْوَزْدَادْ" (**ستنطقون الاسم بصعوبة**)بالقرب من جبانة سيدي أحمد، وكان سابقا يسمى "بلكور"، احتفظ باسمه الأول مثل مختلف الأحياء بالعاصمة، أو كأن الاستقلال لم يفعل شيئا في حب الناس للماضي، أو كما أن هذه المدينة بقيت أسيرة النموذج الكولنيالي، هم الذين بنوها، وبعد الاستقلال أصبحت ملكا لنا، هم أصحابها الحقيقيون، ولكن نحن أصحاب الأرض، تلك التي بنوا عليها كل ذلك العمران الباذخ الجمال، الفاتن للبصر، المريح للعيش، لولا أننا لم نكن نعرف كيف نعيش، أو أنه من طول ما حرمونا من ملذات العيش لم نعرف كيف نختلق فننا الخاص للعيش، كانت بيوتنا مكتظة دائما، هجم الجزائريون من كل قبلة للفوز بثروة السكنات الجميلة، الضباط والنافذون في الحكم أخذوا الفيلات والقصور والشعب استولى على الشقق في العمارات، ولكن بقيت صورة حيّنا ناصعة في ذهني، وجميلة، وكنت أحب تلك الأزقة الضيقة بالرغم من خطرها ليلا، كنت أحب، وأنا صغير، أن أتمشى مع أخي الكبير متشبثا بيده حتى لا أضيع أو أسقط، أو تلتهمني زحمة ذلك الحي الشعبي الكبير،

www.mlazna.com-رياح الشرق

لا أمـــل مـــن النظر لقاعات السينما، (تخرب معظمها الآن، وأغلقت أبـــوابها) وللأسواق الكثيرة، (لا تزال موجودة، لم يمسسها سوء، ولم تتغير بل بقيت كما هي في ذاكرتي البعيدة) وللناس الذين كان يُخيل إليّ أنهـــم ســـعداء بالفطـــرة، فرحون بلا أي سبب يستدعي الفرح، مـــزهوون بالمدينـــة التي تملكوها أخيرا، وأصبحت لهم، هم المنفيون في بلادهم منذ مئات السنين..

لا أتذكـــر طفـــولتي جيدًا، بعض الومضات الخاطفة فقط، بعض اللحظـــات التي تعود عودة أليمة، بصورة متقطعة، ومكسرة ومشوشة، مثلما رأيت أبـــي مرة يضرب أمي ضربًا عنيفًا وهو يصرخ بهذيان في وجهها:

"لو فعلتها مرة ثانية لقتلتك.."

لم أتذكر قط سبب الضرب، سبب كل ذلك العنف، والصراخ، والعويل، والبكاء، واللحم الأحمر، والدم النازف، والوجه المُهان، أتذكر فقـــط حالة الألم الذي سببها الموقف حينها بداخلي، كما لو أنه خلق مـــنطقة صامتة، وجرحًا لا يبرأ، جرحًا عميقا، نافذا، لم تصلحه بعدها مناظـــر زهـــو رأيتها بين أبـــي وأمي، فالضرب لم يكن عيبًا حينها، فالرجل كان من ميزاته تأديب الزوجة إن أخطأت، وضربها إن عصت وتمـــردت، لكـــن بالـــصورة التي رأيته به، لم يثرني الأمر إلا بالسلب، كـــتمت غيظـــي وبقيت أحس نحو أبـــي بشيء لا تفسير له، مرضّي بالتأكيد، عقدة خاصة، وخالصة، معقودة بحيث لا نبرأ منها بسهولة.

كنت أذهب مع أمي للحبانة القريبة من بيتنا، مكان يقع في طرف بلـــوزداد، بحـــي "العقيبة"، هناك حيث تتجمع النسوة كل يوم جمعة ويتبادلن الأحاديث الخاصة بهن، لم يكن يحلو لي سماعهن وهن يطنبن في التـــبرك بالـــولي الصالح والتشفع به، وطلب المساعدة، والنجاح، وغير

ذلـــك، كـــنت ألعب مع من تحضرهم أمهاتهم مثلي، نلعب بسذاجة الأطفال حتى تأمرنا أمهاتنا بالعودة للبيت فنعود.

نعـــود معهن للبيت، كنت أعتقد، أن أمي كانت تصحبني معها، حـــتى لا أبقـــى في البيت لوحدي، ولكنها في الواقع كانت تفعل لأن والـــدي كـــان يشترط عليها أن تأخذ معها ذكرا ما من أبنائها عندما تخرج، كانت تلك هي القاعدة، فالمرأة لا يصح لها أن تخرج لوحدها، وعلـــى الطفل أن يثبت بما لا يدع أي مجال للريبة أنها متزوجة، وأن لها رجلا، وأن ابنها سيحميها إن اقتضى الأمر و لم يكن بمقدوري، وأنا ابن الخامسة حمايتها طبعاً، ولكن تلك كانت تقاليد أبناء مدينتنا حينها..

أما أبـــي فلا أتذكر كم مرة صحبني معه خارج البيت، وكانت المناســـبات دائما محددة، عندما أمرض يأخذني للمستوصف كي أعالج، ومـــرة كان لهدف آخر ارتبط بذكرى ختاني، في ذلك اليوم الذي لن أنـــساه، ربمـــا لأن دموعي تهاطلت كثيرا، ربما لأن والدي كان يريد ضربـــي لأنني خفت من مقص المختن، وربما لأنني بعد أن تم كل شيء بـــسلام شعرت بعاطفة أبـــي القوية نحوي، لقد ضمني على غير عادته بقـــوة إلى صـــدره ثم حملني بين ذراعيه، وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي فعلها معي..

ولا أنسى طبعًا يوم دخولي المدرسة بمئزر أبيض خاطته لي جارتنا "سعيدة" التي كانت تعمل خياطة في بيتها، معتمدة على نفسها في تربية أولادهـــا الـــسبعة بعد وفاة زوجها مقران خلال الثورة، وأبـــي وهو ينـــصحني قـــبل مغـــادرة البيت أن أتعلم جيدا، وأبرهن له أنني رجل يستحق ثقته.

لمـــاذا تكلم معي بذلك الشكل؟ كنت صغيرا ولكن تلك الجملة بقيت راسخة في ذهني، ولعلي ما كابدت مشاق التعلم سنواتها إلا تحت

تـــأثير جملـــته تلك، أن يثق في والدي، فهذا كان بالنسبة لي الضمان الوحيد لحريتي، لعدم ضربه لي إن أخطأت أو أفسدت.

هـــل كان يريدني حقا أن أتعلم؟ وما سبب ذلك؟ لم يكن يظهر مـــيلا هو للتعلم، بل نادرا ما رأيته يقرأ كتاباً أو حتى صحيفة، وكان يـــبدو نافـــرا من هذه الأمور التي تخص المتعلمين الذين لم يكن يحبهم كـــثيرا، وسمعـــته مرات عديدة يقول إنهم سبب خراب البلد وأحيانا ينعتهم بأقذر الأوصاف كالخراطين والخرابين.. الخ وكنت أضحك من تلك الأوصاف المشينة حين أسمعه يطلقها منددا بأعداء النظام الجديد..

كنت صغيرا ولم يكن العالم بالنسبة لي مقسما إلى خير وشر بعد، ولا إلى معارضـــين ومساندين لهذا النظام أو ذاك، ولم يكن هاجسي أن يكـــون والدي محسوبا على السلطة حينها ورجلا من رجالها الأقوياء، كـــان يكفيني فخرا أن لي أبا يهاب منه الجميع، غير أنه كان يخيفني أنا أيـــضاً، ولم أكن أجد لهذا أي تفسير، وقد حاولت أن أتفهم سر خوفي مـــنه، وعدم قدرتي حتى الجلوس إلى جنبه مثلما يفعل الأبناء مع آبائهم ولكـــنني لم أستطع فك ذلك اللغز. واكتفيت حينها بحنان أمي الرقيق، وما كانت تفعله لأجل حمايتنا نفسيا من قهر زوجها الغليظ.

الخوف من الضرب كان أكبر وساوسي، بعدما رسخت في ذهني صورة ضربه لأمي، ضربه الذي جعلها طريحة الفراش لأسبوع بأكمله.

لم يكـــن ذلـــك الضرب بالشكل الذي يمكن تصوره الآن، كان ضربا غريبا يشبه التأديب كما لو أنها ليست زوجته التي سيقاسمها ليلا فراشـــا واحـــدا ويصبحان نفس الجسد وهما يتعانقان معًا، لقد رأيته يضربها مرة بنعل حذاءه وهو يصيح بها، لأنها نسيت أن تحضر له كوب مـــاء "أيـــتها النعسانة خذي هذه"، يقذفها بالنعل فيصيب وجهها أو صـــدرها أو كتفها ومرة يصيب بطنها فتكاد تسقط لهول تلك القذفة

الجـــبارة لتختفـــي بسرعة دون أن ترد له الضربة وقد تعمد أحيانا إلى الإضراب عن الكلام ليوم أو يومين ونادرا ما يتجاوز ذلك، وتعود من جديد لعادتها القديمة فتسمح له بمجامعتها في الفراش أو التحدث معها قليلا رغم أنه كان قليل الكلام معها كما كان معنا نحن أبناءه.

* * *

صـــغيرا شعرت بلغزية أبـــي فلم أكن افهم ذلك، وكان يبدو لي رجـــلا محكومًا بسر، حتى يخيل إليّ أنه رجل يعيش حياتين، سيرتين، له عالم آخر في مكان لا نعلم به، عالم يخصه لوحده، لا أخفي بأنني كنت أنتـــبه لكل كلمة تقال عن أبـــي هنا وهناك، داخل البيت وخارجه، كـــنت وأنـــا طفل لم يبلغ العاشرة بعد أنتبه لمن يتحدث عنه، أسترق الـــسمع، أحاول أن أعرف لماذا هو مختلف هكذا عن آباء زملائي في المدرسة، ولماذا مشاعري نحوه متناقضة أحبه وأكرهه، أخافه وأحترمه، أرغـــب في الانتساب إليه، وأمقت ذلك الانتساب، كانت لدي أسئلة كـــثيرة ولم أكن أجرؤ حتى على طرحها، كما لم يكن هناك أي أحد يتكفل بالإجابة عليها.

* * *

مات أبـــي منتحرا، وهو في الرابعة والخمسين.

كـــنت حيـــنها قد بلغت سن الانتصاب على ما أذكر، لم يكن يعنـــيني مرض أبـــي النفسي حين صار يبدو مُسالمًا للغاية، وطيباً لأبعد حد ولهذا شعرت أنه عندما مرض دخل في حالة من الصفاء العجيب، بالرغم من أن أمي راحت تتحسر على حظها من الحياة وهي تعاني من زواج ينتهي بهذه الصورة المريرة.

www.mlazna.com-رياح الشرق

بكت أمي كثيرا يومها، بكت كما لم أرها تبكي في حياتها قط، ولقـــد خلق منظرها ذاك جوا من الحزن البارد بنفسيتي، شعرت بعقدة ذنب نحوه، ولكن كتمت حسرتي بداخلي، لأنني حتى تلك اللحظة لم أكن قد حسمت الأمر مع نفسي، ون كنت أحبه حقا أم لا.

لقد تغير سلوك والدي عما كان عليه سابقاً قبل وفاته بسنوات، وتغير مسارات الحياة، حتى لا أقول تطور ذهنيات الناس، لم يعد أبـــي كمـــا كان في البداية عنيفاً جدًا، صارت له علاقة جميلة بأمي، مرتبطة بحـــنان خاص، يحن عليها، يمازحها أحيانا، كنت أرى تلك التحولات تظهر عليه فجأة وإن كان يفعل ذلك ليلاً قبل أن يمارس معها الجنس، ربما كانت طريقته في إذكاء شعلتها الجنسية لا غير، أو ربما أمام جسد أمي كان يحس أنه طفل مرح بحاجة لأن يكون على غير ما هو عليه في النهار حيث كانت مقتضيات عمله تجعله فظا، وغليظا، وشرساً..

كـــان أبـــي يعمل في مؤسسة العقاب كما سميتها أنا لاحقا تيمنا بصديقي كافكا، والذي بدأت قراءته باكرًا، وأنا في العاشرة من عمري عـــندما أهـــدتني معلمة العربية قصة "المسخ" ومن يومها لا أدري ماذا حـــدث في رأســـي، ســـكنتني ذبابـــة الأدب، كما جنون القصص والخيالات..

كانت معلمة العربية امرأة ودودة للغاية، وتتكلم كما لو أنها نبيّة أرسلت لإخراجنا من الظلمات إلى النور على عكس المعلمين الآخرين لم تكـــن تستعمل العنف قط، كانت طريقتها أن تجعلنا نحب ما نقرأ، ونعجب بكل ما نفعله، وكانت في كل خميس تمدينا كتباً للقراءة، كتباً صرنا نتلذذ بها، وهي تعدنا بمغريات كثيرة إن نحن قرأناها كما يجب.

كانـــت تبدو متحررة من الخارج، أنيقة وهادئة الجمال، بارعة في اللباس، ترتدي سروال الجينـــز وتسرح شعرها للوراء كما الأوربيات

تقـــريبا، وتـــضع بعض المساحيق على وجهها، بالنسبة لي كانت بمثابة الملاك الصافي الذي يفرحني النظر إليه أطول وقت ممكن.

لاحظت شغفي بالقراءة فكانت تعيرني من مكتبتها قصصًا طويلة أطول من تلك التي يقرأها زملائي حينها وكانت تمتدح حبـــي للقراءة مدحًا خاصاً، وأحيانا تعطيني حلويات ونقودًا من أجل تشجيعي أكثر.

كُنت أستفيد منها بشكل رائع، وأنا أشعر بزهو لاأنائي لم أعرفه قط من قبل، زهو كان يجعلني أشعر أنني خرجت من القطيع، وصرت بفـــضل ما أقرأه متميزا عن غيري. بل جد مختلف، وكانت معلمتي هي محـــور كلامي كله بعد أن أخرج من المدرسة، وأعود للبيت، وأتحدث لأمـــي عـــنها فتبتـــسم لي، وهي تقول: "ولكن حذار منها فهي تشبه الأوربيات وقد تفسد أخلاقك."

بداخلي كنت أجيب أمي هكذا:

"أية أخلاق، لعنها الله إلى يوم القيامة"..

كنت أتمنى سرًا لو كانت معلمتي هي أمي بالفعل، تحسن الحديث بلغة جميلة تجعلني أومن بأشياء كثيرة، وأقتنع بأن جمال الحياة هو الحياة نفسها.. أن تعيشها، وتحبها، وتتذوق كل ما فيها من متع وملذات..

أتذكـــر معلمتي تلك في ذلك الزمن الطفولي البعيد، وما جرى لها بعـــد ذلك من آلام.. لقد طردها المدير الكلب لأنها وبخت معلماً وجه لهـــا ملاحظات على ملبسها الفاضح بحسب رأيه.. لم أعرف القصة إلا لاحقـــاً، وسمعت من معلم آخر يشرح لزميله كيف أنها كانت وقحة، وهـــي تنعـــته بالمتخلف والأصولي، وتقول له: "تريدون تحرير النساء بسبهن وشتمهن يا للعار".

لم أر معلمتي تشتم قط، لقد كانت طيبة وبالتأكيد كانت العملية مدبرة كما سأعرف لاحقًا من طرف البعض لأنها لم تكن تشبه الجميع،

مختلفة عمن كانوا يشبهون بعضهم البعض. لقد حاول المدير التحرش بها عدة مرات، وعندما هددته بتبليغ الشرطة، استغل علاقته بالحزب ليكتب عنها تقارير مسيئة لشخصيتها، وكانت النتيجة أنها أصبحت غير مرغوب فيها، ثم دبر لها مقلبا تافها، اتهموها بتعليم التلاميذ أشياء محرمة، والتمادي في الدعوة للتحرر من سلطة العائلة.. الخ ودفعت ثمن هذا غاليا، بالرغم من أنها تركت المدرسة منتشية وهي تقول: لا أستطيع العيش مع هؤلاء الكلاب..

* * *

علمتني القراءة وحُبها، فصرت أقرأ كثيرا، وأنظر للعالم من خلال الأدب لا غير..

لم يدرس أبي بسبب الظروف التي عاشها قبل الاستقلال، ولم أكن أحب أبي قبل مرضه النفسي، كان نادرا ما يجلس إلى أحد منا، كنا خمسة ذكور وست بنات، وكثيرا ما تساءلت لماذا أنجب كل هذا العدد الهائل من الأولاد؟ ولكن كان عصرهم عصر إنجاب، الذرية هي السند والخلف، الحياة لا تستقيم إلا بالأولاد وبعد التحرر شجعتهم الدولة حتى يزداد عددنا وحتى نزداد بؤسا على بؤس..

أيام عصر الاشتراكية من كان يصدق أننا سنموت بالجوع والعراء والفقر لاحقاً..

كان أبي يحب خُطب الرئيس بومدين (**ذلك العسكري الذي أراد تغيير وجه الجزائر وحلم ببلاد أكبر من حجمها الحقيقي**) ويستمع إليه في الصباح والمساء، وأيام الجمعة ينتظر خطبته التي يعاد بثها في الراديو بلهفة وشوق.

www.mlazna.com-رياح الشرق

كثيرا ما كنت أستمع إليه أنا أيضا. يخطب بصوته الرعدي الجهور وأبـــي يصفق كأبله وراءه..

لم يكـــن أبـــــي أبلهًا بالتأكيد، كان رجلا يؤمن بذلك الزعيم، ويصدقه، ويدافع عنه، ويعتبر نفسه جنديا في خدمة تعاليمه، مناضلا في جهاز سلطته، رقمًا له دور في هذا العالم الذي يحكمه بيد من حديد.

ترقـــى أبـــي في عهد بومدين إلى مدير سجن، وكان ذلك كافيا لـــيجعله يـــشعر أنه صار رقمًا مهمًا هو الآخر في نظام الرئيس، نظام محكم الإغلاق، مفتوح على شرفة للحلم، وشرفة للهاوية..

لم أتـــساءل قط عن هوية أبـــي، عن عمله بالضبط، عن رأيه في الحـــياة، كنت أحلم أن أجلس إليه وأسمعه يحكي لي قصة حياته، كيف قـــاوم وكـــيف بنى نفسه؟ ما هي الأشياء التي حلم بها؟ والأشياء التي تـــركها؟ كيف يتصور المستقبل؟ ثم.. ثم كل شيء، كأي أب يمكنه أن يجالس ابنه ويسرد عليه قصته من ألفها إلى يائها؟

علـــى الرغم من حضوره المهيب، ووجوده الساطع في البيت لم يحـــدث ذلـــك قط، لم يحدث، ولم يكن مقدرا له أن يحدث. لم يكن أبـــي دارساً ولا متعلما، كان يعرف الأبجديات، ويؤمن بالخبرة ويعتقد أن العِلم خُلق لأناس آخرين وهو ليس منهم، ولا يحتاجه في مهمته التي تتطلب خبرة بأشياء أخرى معقدة لم يكن ذهني ليفهمها حينها..

كـــان أبـــــي كتوما جداً، ولا يتحدث مع أحد، ومهنته جعلته بعيدا عن الناس، لا يخالطهم ولا يخالطونه. يتهيبه الجميع، وكان يحلو له أن يـــرى أثر هيبته تلك على الوجوه التي تبتسم له بزيف وهو يمر من قـــدامها، وتحييه بخضوع عندما يقف أمامها، هل كان ذلك هو مصدر قوته، الصمت المهيب.. عدم الكلام إلا بمقتضيات الحاجة، أم أنه تعلم من عمله أن يكون كذلك، كتوما وسريا ومُهاب الجانب.

مـــرة سمعتهم في المقهى يتحدثون عنه، وأحدهم يقول "يعيش من تعذيب إخوانه". أثارني ذلك، أفزعني أيضاً، إنهم يتحدثون عن أبـــي، تمنيت يومها لو لم يرسلني والدي لشراء الحليب من ذلك المقهى العفن، ومـــن كـــان هؤلاء حتى يتكلمون عنه بهذا الشكل الوقح؟ وهل كان أبـــي معذباً حقا لإخوانه؟ أم هي وشايات لا غير، كلام تلوكه الألسن العاجزة عن فعل شيء حقيقي فتتهم وترمي بفشلها على جبروت هذا، وقـــوة ذاك، وعُـــدت منكسر الخاطر، أخبرته بما سمعت فرمقني بنظرة قاتلـــة، وأمـــسكني من يدي وأخذني للمقهى بسرعة، وطلب مني أن أرشده عمن تحدث عنه بالسوء.

لأول مـــرة تعثر لساني، ورغم رغبتي في أن أشي بالذي تكلم عنه بالـــسوء إلا أن الوجـــوه الخائفة بالمقهى جعلتني أصمت، فنالني عقاب شديد القسوة منه..

مـــنذ ذلك الوقت شعرت أنني فقدت احترام أبـــي لي، فلم يعد يكلمني إلا وهو ينعتني بالجبان، لم أفهم كلامه حينها، وإن أدركت أنه كان ينتظر مني أن أكون شجاعا أمام سكان الحي، استنكر عدم قيامي بالواجب الذي تفرضه علي قرابتي منه، وانتسابـــي له.

مـــع ذلـــك لم أكره أبـــي. كرهت نفسي، كرهت حالتي أنا، بالـــرغم من أن ذلك الموقف جلب لي الاحترام من طرف سكان الحي الجبناء..

كـــان أول من شكرني على فعلتي رجل يعمل في إصلاح الأحذية بحي "العقيبة" حين قال لي:

"هذا سلوك تحترم عليه يا بني، ليس هناك أسوأ من البياعين، لقد عانينا منهم زمن الثورة، والآن يجب أن نقول لأنفسنا الحقيقة، لم تتغير أمورنا نحو الأحسن.."

تعـــرفت علـــيه، وصـــار بمثابة والدي أيامها. كان في الخامسة والخمـــسين، قال أنه اختار مهنة إصلاح الأحذية لأن والده كان يعمل فيها، ولكنه كان قبلها يعمل في صيدلية فاستغربت، ضحك مني، ورد مبتسما بسخرية:

"لقد أممها الزعيم، بطبيعة الحال من أجل اشتراكيته الوهمية..".

حدثني عن أمور لم أكن أفقهها جيدا، ولا أخفي بأنني شعرت أن الرجل كان يتكلم بصدق حقيقي وبروح إنسانية عالية وبألم كبير.

لم أندم أنني لم أش لأبـــي بذلك الرجل، لقد جعلني الأمر أتساءل لا غير:

مـــاذا كان يعمل أبـــي حتى يخافه الجميع بذلك الشكل المروع؟ هل كان جلادا حقا في تلك الزنـــزانة التي لم تطأها قدماي قط، كان أخي الكبير هو الذي يأخذ له الأكل وقت الغداء، أما أنا فكنت أقرب مـــن هذه المهمة العسيرة التي كانت تعني لي كشف النقاب عن عمله الحقيقي..

سألت أمي فلم تجبني، كانت باستمرار تدافع عنه وتقول:

"المهم أنه يطعمنا ويلبسنا ولا يتركنا في حاجة لأي شيء".

كانت أمي ريفية في سلوكها، تزوجها أبـــي وهي لم تبلغ الرابعة عـــشر من عمرها، وأحضرها معه لتسكن في حي القصبة أولاً ثم بعد الاســـتقلال بحـــي بلوزداد. حيث ولدت عام 1960 وكبرت في ذلك الـــزمن المبهم والغامض من الحياة، زمن الخروج من الاحتلال الذي لا أتذكر منه أي شيء.

أسأل أمي عن زواجها من أبـــي فتبتسم وتتحدث بخجل:

- طلـــبني مـــن والدي، كان يأتي لقريتنا من أجل شراء الزيت لمعلمـــه الفرنسي، وهناك تعرف على والدي الذي كان يملك

www.mlazna.com-رياح الشرق

معـــصرة شهيرة بأزفون، ولا أعرف من دلّه علي فطلب يدي من والدي وتم قراننا في أعالي الجبل..

- **كيف رأيته لأول مرة؟**

- كـــان شابا في العشرين من عمره، وقال لي إنه لا يملك الكثير من المال وإنني سأعيش مع عائلته في حي القصبة وإنه علي أن أتحلـــى بالـــشجاعة لأن الحياة في المدينة مختلفة عن الحياة في الجـــبل، وقص علي حياته مختصرة وقال إنه يعمل عند فرنسي كحارس ليلي.. الخ

- **هل أعجبك؟**

ردت متسائلة بدورها:

- **أعجبني؟!**

ثم أكدت:

- **نعم..**

أضافت بعد صمت قصير:

- لا أدري، أعجبني، أوف لا أعلم.. لقد كان وسيما نوعا ما، وطيبا، أهداني جلابية بيضاء وقرطا نحاسيا، وخاتم فضة، وقال لي بأنه سيفعل كل شيء من أجل إسعادي..

تحدثت أمي باقتضاب ثم أغمضت عينيها وبكت، شعرت بحرقتها حيـــنها، لا شك أن وعوده ذهبت مع الهواء، وأن كل شيء تغير بعد شهر أو شهرين من زواجها.

لم أكـــن أكـــرهه مع ذلك، هل لأن إهماله لي هو الذي كان يـــوهمني بأنني أقرب الناس عاطفة إليه؟ أم فقط كنت أنظر إليه على أنه ذلك الجبل الشاهق الذي لن أقدر، حتى لو كرهته، أن أنال شعرة واحدة من رأسه..

لا أدري..

كنت أحبه، وكفى، وكنت أمقته وكفى، كان يخيل إليّ أنه شخص لا يملك قلباً، أو عاطفة، وأن مهنته في الزنزانة زادت من خشونة روحه وفظاظة قلبه.. وأن زمن بومدين أكمل عليه..

* * *

كانت السبعينيات تعني الكثير من الأشياء، الكثير من الأحلام، الكثير من الأوهام، والكثير من المخاوف..

هكذا كانت تلك الفترة الحالمة والحرجة بالنسبة للاسكافي "عمي العربي"، تلك السنوات التي مرقت فيها الطفولة بسرعة البرق، كبرت ولم أكبر، ذلك أنه لم يكن للتقدم في السن أي معنى، فالكبر ليس زمنيا بل هو ما نصل إليه من نضج. أو هكذا كنت أقول لنفسي، ولم أصل للنضج رغم شقاواتي الكثيرة، وإن حياتي ستأخذ منعرجات مختلفة، وسبلا متشعبة، إنني سأتوه حتما في متاهات غريبة، وموحشة، وقد لا أجد في تلك الدوامة ما أنشده حقاً. كان يستبد بي هذا اليقين، لا أعرف لماذا؟ هل يستطيع الإنسان التكهن بأنه محكوم بالسير في طريق مختلف عن طرق الآخرين، وهو يودع بهجة الطفولة، ويوتبياها إلى لارجعة؟ أظن أنه في جانب مني كنت أعرف، وأحس، كنت متفهما، أو مدركا أنني سأختار في النهاية طريقي بنفسي، دون أن أكون على علم بالوجهة طبعا، كان يقيني هو أن كل ما أرتبط به، أخسره بسرعة، كل ما أحبه أفقده بالتأكيد، وأن الخيارات التي ستتاح لي ستكون سيئة وأنه عليّ رغم ذلك المُضي فيها، الاستمرار في السير على هداها، ومن جهة أخرى كان عليّ مقاومة غموض ما أحلم به، غموض لحظتي النفسية المعقدة بكل ما يلحمها، ودفعها كي تذهب إلى أعماق الأمل.

كـــان عمي العربـــي هومعلمي السياسي، وأبـــي الروحي، وفي تلـــك البدايات الأولى كنت أصغي إليه كمرشد حقيقي، كان نقيض أبـــي في كل شيء، وكان عكسه يتكلم عن الزعيم بطريقة فيها النقد اللاذع، والسخرية الحقودة:

"بـــومدين هو قمة الغرور الذي تصنعه عظمة القوة لتكسر عظمة الشعوب".

كـــان يـــتحدث بإطناب، مسترسلا في شرح وجهة نظره التي كـــان يراها كالحقيقة، لا تحتاج إلى تدليل، يكفي أن الزعيم أدخله السجن، فقط لأنه اعترض عليه، وكانت ثقافته السياسية تسمح له بالحديث من دون توقف، كلام كثير كمن يملك موسوعة في ذهنه، يـــؤمن بقـــيمه ومـــثله العالية رغم أن الواقع كان يكذبها، وأحيانا يتـــناقض معهـــا، ويكـــسر تلك الرؤية تكسيرًا موحشًا وقد حولها لأحلام مفتتة على آخرها..

عـــرفني علـــى جماعـــته التي كانت تنشط في الخفاء، وقال إنهم سيـــساعدونني علـــى الفهـــم، والعمل على تغيير الأوضاع.. لم أكن متحمـــسًا لأي نـــشاط سري. ولكنني وقد بلغت سن الخامسة عشر، صارت لي رؤاي أنا أيضاً، مفاهيمي المجردة، مخاوفي القلقة، ومشاعري المكهـــربة، طموحاتي التي لا حدود لها، وانكساراتي الصغيرة، جروحي التي تكبر مع الوقت دون أمل في الشفاء منها.

جماعته الصغيرة لم تكن إلا مجموعة من الشباب الذين يدرسون في الجامعـــة، طلاب حقوق، وفلسفة، ولغة فرنسية يجتمعون سرا في أحد البيوت، يتكلمون بلغة لم أكن أفهمها حينها، كانت تبدو مثل شيفرات سرية، يعلمونك الحذر، عدم الثقة بأي أحد، والحلم بالتغيير الممكن..

www.mlazna.com-رياح الشرق

خطيبهم كان في الأربعين، شائب الشعر مع ذلك، نحيل الجسم، قصير القامة، وله نظارة سميكة يضعها على عينيه، سوداوية اللون، حتى لا نتعرف عليه أكثر، وحتى يظل في منطقة الأمان..

(سألتقي به بعد ذلك بسنوات طويلة وأراه شخصا فقد كل ذلك البريق الخفي الذي كان يميزه، منطفئ الشعلة، ضامر الوجه، كما لو أنه تجرع سموم أحلامه التي أنهكها التعب، وخيبها الزمن وأذبلتها المحن، رجل بلا أحلام رأيته يشرب في بار صغير لوحده.. يدندن بأغنية قبائلية عن زمن أحلام الشعراء المهزومة.. لن أرثي وضعه لأنني فيما بعد، صرت في مثل حاله تقريبا فقط بصورة مختلفة)

قيل لي إنه تعذب على يد والدك، عذبه والدي أكثر من مرة، ونجا من الموت بأعجوبة، وإن جسده منتهك، ومحروق، وإنه صمد، هذا هو ملخص قصته، صموده هو رأسماله الحقيقي، وإنه الآن في قلب المعركة.

لم يكلمني قط، كان يخطب لساعة أو ساعتين، يقرأ التقارير ويوزع المهام، ويطلب من كل واحد أن يحتاط من الناس الذين يتكلم معهم، ليعرض علينا بعدها فنيات وتقنيات الصمود إن وقعنا في يد البوليس..

عندما كنت أسمعه كنت أشعر ببرد، لم أكن أعلم من أين كان ينزل عليّ، وكنت أتساءل لماذا ثمن النضال هو هذا بالذات، أن يفقد الإنسان قدرته على أن يعيش حياة عادية مثل بقية البشر..

مرة سألته:

- هل تستحق الأحلام أن نموت من أجلها، أو نتعذب في أحسن الأحوال؟

رمقني بنظرة شاحبة، وقال:

لقد أردت من رانية أن تكون معي في نفس السرير، واضطررت نتاج ممانعتها أن أشي بها لأخيها كمال الذي راح يضربها أمامي ضربا لا يوصف، صفعات وراء صفعات، ركلات وراء ركلات بينما راحت هـي تـصرخ تستنجد بـي، وهي تأخذ نصيبها من الرجولة الملتبسة بالتقاليد، والأكاذيب المزيفة.

لا أدري لَمَ لم أشعر بشيء نحوها، بل سعدت.. فرحت بداخلي كمـا لـو أن أخاها انتقم لي من تلك الليالي التعيسات، ومن رفضها المـستمر لطلباتي.. لم أشعر بالخيانة، ولأول مرة ذقت فرح التعذيب، وأحسـست ببشاعة أنني في جزء مني أشبه أبـي حينها، ولم يدر ببالي أنـني كنت أحون كل ما قرأت من كتب، أحون روحي وأنـزلها إلى مستنقع دنس، وأرض تفوح بالكراهية والشر.

* * *

كـان عـدنان يسكن في الطابق السادس من العمارة، وكان الوحيد الذي أستطيع التكلم معه في أموري الخاصة، حدثته قديما عن حبـي لتلك الفتاة فضحك، أخبرته حتى بأنني وشيت بها، وتلذذت بـضربها من طرف أخيها الأحمق، فلم يرد عليّ، لم يقل أي شيء، كـان ينظر إليّ مستغربا من كوني أعترف أمامه بهذه الأشياء، ومرة سألني:

- هل تراني قسا يحلو لك ذكر جرائمك أمامه؟
- لا، ولكـن أنـت صديقي الوحيد منذ كنا في العاشرة ماذا تريدني أن أقول لك؟ إن أزعجتك أخبرني.
- أنـت لا تـزعجني ولكن أحيانا أتساءل لماذا لا أملك نفس صراحتك فأخبرك بمشاكلي وأخطائي؟

- من تعذب مثلي، وظل يقاوم لا يطرح عليه مثل هذا السؤال.

ثم وأنـا أحاول التملص من ذلك المأزق الحرج الذي أوقعت فيه نفسي قال لي من جديد:

- لا تقلق، أنت لست صورة شبيهة بوالدك. يكفيك شرفا أنك معنا هنا، وفضلت خيار المواجهة على الصمت.

كانـت تلـك الكلمات والجمل تبدو لي كبيرة، وجليلة، وحتى مثاليـة، أكـبر مـني بالتأكيد، وربما من جهة أخرى لم أكن أستطيع الانخراط معهم في نفس ما يقومون به لأنني لم أكن مؤمنا بذلك، ولعل الأمر ظل هكذا، فبالنسبة إليّ أنا أضعف من القتال حتى الموت من أجل أحلام ربما لن تتحقق..

كنت أفكر في كل مرة في الطريقة التي أتركهم بها، متسائلا فقط "ما دخلي بهم؟"

قال لي في آخر مرة لقيته فيها:

- إن الفـشل الحقيقي هو أن يموت الإنسان دون أن يحاول، أن تفشل في تحقيق ما تريد شيء، ولا تعمل من أجل تحقيقه شيء آخر..

لقـد تـركت كلماتـه تلك بداخلي أثرا نافذا للغاية، وحقيقيا بالفعـل، وكـنت أتذكرها من حين لآخر مبتهجا لأنني تعرفت على نوعية من البشر لا تشبه الآخرين كثيرا.

لقـد كان عملهم السري هو سبب علاقتي السطحية بهم، تلك الـسرية الـتي كانت تمثل محور حياة والدي، ومحور وجوده، وتعودنا عليها كما تعودنا الأكل والشرب كغريزة طبيعية للبقاء.

كـنت أحـب تلـك السرية لسبب أجهله، كما لو أنني بذلك الشكل كنت ألعب دورا في مسرحية لسارتر، أو كامو، كشخص يريد

أن يلعب مع قدره، أو يترك القدر يلعب به، متمنيا أن يجد في أمواج الطريق طريقه الحقيقي، وصوته العميق.

أذكر كيف كنت أعود إلى البيت من تلك التجمعات، وأنا مبلبل الخاطر، متمزق الروح، تفترسني، ما إن تقع عينا والدي على وجهي آلام لانهائية، لا أحد بما أصفها حقاً، وتساؤلات بلا حد: هل كنت أفعل ذلك انتقامًا، أم خوفا منه؟ وماذا لو عرف؟ هل سيعذبني أنا أيضاً من أجل إيمانه الكبير بسياسة بومدين؟

وكنت لا أعرف؟ ربما لهذا السبب كان ذلك مثيرا لسعادتي أيضا، وكنت أجد عند معلمة العربية التي لم تنقطع علاقتي بها قط الزاوية الأدبية التي كنت أحتاج إليها في تلك الفترة، أي الخيال، وما يجعل الواقع مجرد مسرح لا غير لتشكل المعاني المتضاربة، والمتحاربة، وصور الحياة المتعددة والمتلونة، وأنغام هذا الوجود الضائع..

لقد كانت تلك المُعلمة، التي دُبر لها ذلك المقلب الحقير لتترك التدريس، وتذهب للعمل في أحد المراكز الثقافية فتشرف على المكتبة المتواضعة بحي عبان رمضان، خير من أعانني على خوض تجربتي بشكل آخر مختلف عن الذي كان يدبجني في مجموعة من الحالمين بتغيير واقع دنس، وغير الواقع الذي ظل يمثله أبي، والاحباطات التي كانت تسببها لي مشاعري المتنافرة، والتي لم أستطع لم شتاتها بعد.

حدثتها عن تلك الجماعة اليسارية فلم تكن تمانع أن أكون منخرطا في توجه سياسي معارض، وكانت تنصحني بقراءة أندريه مالرو وريجيس دوبريه كثيرا فهما الأنسب حينها لمن يريد التعرف على تجارب مماثلة، في النضال الواقعي ضد الظلم والتعاسة..

غير أنني بقدر ما تقبلت تلك الفكرة التي بقيت جد مثالية في رأسي، بقدر ما كنت عاجزا على تحقيقها في يوميات واقعي، ولهذا

www.mlazna.com-رياح الشرق

بقيت أبحث عن أي فرصة للتخلي عنهم، لقد كانوا أكثر حرارة وإيمانا بكـــثير مني. بسب صدق ما كانوا يدافعون عنه، أما أنا فلم يكن ذلك كله إلا صورة عن حلم لا يتحقق، أو مجرد حلم يمكنك أن تراه، وأنت مستلق على سريرك، أو تعيشه بكل بهائه عندما تكون مغمض العينين، لكن يكفي أن تستيقظ حتى ترفضه، وتقول أريد شيئا آخر، هذا الحلم لا يناسب إلا مناماتي..

لم يكن لدي غير عمي العربـــي أخبره بما أقررته بداخلي، ونويته في سريرة وعيي، فلم يتردد بصدق كبير، ونصحني بالابتعاد عنهم، وهو يقول لي:

- لـــسنا جميعا مخلوقين للنضال؟ هذه معركة تحتاج لإيمان كبير وإلا فشلت نهائيا؟

ثم نصحني بالدراسة:

- أحـــسن ما فعله هذا الديكتاتور أنه جعل التعليم مجانيا لكافة أبـــناء الشعب، أنت تعرف أنني لا أكرهه لهذا السبب، أكره انفراديته في الحكم، هذا السرطان الغريب الجاثم على صدورنا مـــنذ قـــرون ويـــبدو إن الديكتاتور لم يتعلم الدرس، ولكن المستقبل سيكشف زيفه حتماً..

تـــركت الجماعة بعدها غير نادم، أو كمن خرج من حلمه ذاك مستيقظا، وأحسست بحريتي في أن أكون ما أكونه وليس ما يراد لي أن أفعلـــه، ولعـــل أهم ما فك عقدتي أكثر من أي شيء آخر، هو عدم شـــعوري بازدواجيتي أمام والدي، إذ كان وجودي مع تلك الجماعة يعـــني في ذهـــني شيئا واحدا لا ثالث له وهو أنني أخونه في ظهره، هو أبـــي علـــى كل حال، مهما اختلفت معه، ومهما رفضت وصايته وســـلطته وأفكـــاره وتبعيـــته، يظل أقرب الناس إليّ، وإن رغبت في

مواجهـــته فبالتأكيد لن أواجهه بالخيانة، بل بالصراع المباشر والحقيقي، أي وجها لوجه..

تركتهم وخرجت لنفسي عاريا، باحثا عن وجوه أخرى للحياة. باحـــثا عمـــا يعطيني نشوة جديدة أحققها بالفعل، لقد فهمت حينها مأســـاويتي تلك، إنني عاجز، غير قادر على الذهاب لأبعد نقطة أرغب في الوصول إليها..

كان صديقي عدنان يسرح بتفكيره إلى بعيد، وهو يقول لي:

"نحن أبناء التعاسة، لقد جئنا للحياة كي ترفضنا السماء، وتسحقنا الأرض."

لم أكـــن أفهـــم كلامه دائمًا، كان مزيجا من الشاعر، والشاب المجهض في واقعه المعيش، وكان يبدو لي أحيانا ضائعًا مثلي بالفعل، ولم يجد طريقه بعد، ولا يعرف حتى من أين يبدأ البحث..

مُـــتعب أكثـــر مني، ضعيف وقوي، غير أنه كان ثابت الموقف، صريح الكلام، غير متقنع، يرفض أن يكون حاشية لأحد، ويدرس بجد، مقتنعًا بأن لا أحد سيساعده مستقبلا إلا تكوينه العلمي..

كنت أردد جملته الطويلة تلك "نحن أبناء التعاسة.." متسائلا لماذا يحـــشرني معـــه في نفس الخندق؟، لست تعيسًا كنت متوترا ومحتارا، أحـــاول أن أقـــبض علـــى حلم عميق فيّ، لا أعرف وجهه الحقيقي، وأرغب في اكتشافه ذات يوم.

* * *

لم أعقـــد صُـــلحاً مع أبـــي حتى جاءه المرض النفسي وصار طيـــباً، وأليفاً ولم يعد يستطيع أن يخيف حتى نملة صغيرة تدب على الأرض.

كنت أدْرس بثانوية الأمير عبد القادر، وتدبرت عملا بمكتبة عمي السعيد اقتات منهن كان عمي السعيد يترك لي مفاتيح الدكانة الصغيرة لأجهـز كـل شيء قبل حضوره، وكنت أشعر بأن قدري مهيأ كي أكون ما سأكون عليه..

مـاذا أريـد أن أكون؟ سؤال لم يكن يقلقني أيامها.. كانت مـشاعري متذبذبة وصامتة، أغلب الوقت كنت أقرأ الكتب، وليلا أتخـيل نفسي في سرير امرأة هي في الغالب الفتاة رانية التي تكبرني بـثلاثة أعـوام، والتي كانت تلهب خيالي كل ليلة فأمارس العادة السرية على شرفها، وأنا أداعب عضوي الذي ظل يذكرني بواجبات الذكورة التي لا ترحم.. مستعيدا مداعباتي لها، ونحن صغار في سن الطفولة التي لا تعطي اهتماما للمحرمات، ولكن رانية كبرت قبلي ونـضجت، أمـا أنا فبقيت ذلك الطفل الذي يحلم بقبل خاطفة، ومداعبات عابرة..

وكـنت أحلم بها، وأنا أقرأ بعض الروايات الرومانسية الرخيصة والـتي كـثيرا ما قادتني خلسة للمرحاض لي أداعب عضوي المنتصب كقدر أعمى..

لم يكـن الجـنس مقلقا للكبار أيامها، كنت أشاهد أخي الكبير يحـضر صديقته للبيت ويدخل معها غرفة النوم ويصلني صوت تنهدها الفاجر كطعنة خنجر قاتلة، فأبيت الليلة كلها أتعذب.

طلـبت مـن رانـية جارتنا أن تدخل معي غرفة النوم دون جـدوى، وعرفت بعدها لماذا كانت ترفض، حين عثرت عليها مرة في شـارع قريب من حينا تمشي مع شاب يكبرها بسنوات عديدة. غـضبت، وبكـيت، بكيت سرا طبعا، بيني وبين نفسي، وعندما تـوقفت دموعـي عن النـزول، صممت على الانتقام منها بأي

طريقة، وقدّرت أنها لابد أن تدفع ثمن خيانتها لي، دون القدرة على أن أقنع نفسي أنها أكبر سناً مني، وبالتالي لا يمكنها أن تكون معي في فراش واحد.

أيامها لم أكن أعرف ما هو الحب، ولكن صورة رانية كانت هي مختصر الحب وجنونه المتوحش.

كانت في الثامنة عشر، براقة العينين، طويلة الشعر تسدله على كتفيها فيثير في داخلي نشوة الأحلام الليلية المباركة، كانت ترتدي دائما قميصا ملونا بالأحمر والأبيض، وكانت تبدو لي كعروس بحر خارجة من فيلم سينمائي لذيذ. كنت أتبعها في الصباح والمساء، أتعقب خطاها أينما تذهب، لهذا جاءت صدمة علاقتها مع ذلك الشاب مروعة للغاية وجارحة لكبريائي ورومانسيتي حينها.

* * *

لا أدري ما هو الحب؟

بقيت دائما عاجزا عن تحديده. لقد كنت أقدسه لكن لم أكن أومن به..

إنه لا يحدث. إنه مجرد خيال لا غير. قصة نقرأ عنها، نشاهدها، أو نحكي عنها، أو نُلهي أنفسنا بها حتى نستطيع أن نقول إن الحياة لها طعم، وإلا ما سر هربي من الحب؟ أو لماذا شعرت أن الحب كان يهرب مني دائما؟

كنت لاهيا بنفسي، وكنت أريد يا إلهي أن أعرف ما معنى الحقيقة، كان الضجر يمزق ذهني، يفتت رأسي من كل شيء لكن كنت أريد أن أعرف إن كانت حياتي ستذهب نحو ما أريده، وهو الأمر الذي لم أستطع تحديده قط.

- أظـــن أن الأمر يعود لمزاج الأشخاص لا غير، هناك من يحب كتمان أسراره، وهناك من لا يحب ذلك.

- ربما.

اكتفى بهذه العبارة وصمت، من جهتي كنت أعرف أن عدنان لم يكـــن متكـــتما لأنه يرتكب أخطاء كثيرة، ولكن لأن ظروفه العائلية كانت صعبة جدا، كان يعيش في بيت زوجة أبيه العنيفة، ويشعر بغربته الكاملة عن باقي أفراد عائلته.

كـــان عدنان ماركسيا كما يقول عن نفسه، ماركسي فرداني، يؤمن بفرديته كثيرا، وإن كان يميل لأفكار الصراع الطبقي ويؤمن بأننا بحـــتمعات بحاجة لفكر مادي جدلي يحررنا من كل الغيبيات وسلبيات السماء التي بلدتنا بنظرة عقيمة لا تتجدد للحياة.

كلامه كان يذكرني بالجماعة السرية التي طلقتها للأبد، ومع ذلك لم أنصحه بالانضمام إليها، كان أوهن من أن ينخرط في أي تنظيم من أي نوع، وكان كلامه مجرد كلام يوتوبـــي لا علاقة له بالفعل.

كانـــت تعجبني ثقافته الغزيرة عندما يتكلم، وأمثلته واستشهاداته التي لا تنتهـــي، بل كنت أغار منه، وهو يستشهد مرة بماركس، أو لينين، أو ألتوسير المجدد، أو هنري لوفيفر المزعج، أو غارودي المتحرر.. الخ.

كـــان الفكـــر يجعلـــه في منأى عن مواجهة ما كان يسميه هو "اســـتبدادية العائلـــة" وكنت أجد صعوبة في إقناعه بالهرب، أنا الذي بقيت طوال مراهقتي لاصقا مثله بالبيت العائلي الذي كان يتفكك من الداخل بعد مرض أبـــي النفسي وانتحاره لاحقاً..

انـــتحار أبـــي الذي لم يحررنا تماما من تلك القيود حينما استولى أخي الكبير على مقاليد الحكم وقد أخذ مكان أبـــي في العمل في ذلك السجن اللعين، والذي صرنا نتوارثه ابنا عن أب..

www.mlazna.com-رياح الشرق

دخل أبـــي حالته النفسية تلك عندما سمع بمرض الزعيم، كانت الإشاعات تنـــزل من كل صوب، وكان موته أكيدا، وأبـــي لم يكن يجد ما يقوله أمامنا، كان يتحمد كالصنم أمام الراديو عله يلتقط أخبارا جديـــدة، وفي الـــيوم الـــذي أخبرونا فيه بموته، دخل أبـــي حالة من الـــصمت، تبعـــتها حالة من الهذيان، تبعتها حالة من العودة للطفولة الـــبريئة، ثم صار شخصا آخر، إنسانا آخر لا يستطيع أن يؤذي بعوضة صغيرة وهو يقول للنملة التي تتحرك "أتركوها تمر بسلام" وصار منظره يشبه أسدا ميتاً لا يخافه أحد.

* * *

خسرت رانية للأبد

وكـــنت أيامها، وأنا أقف أمام شباك النافذة متأملا حينا العتيق، وهو يغص في الحركة، وضجيج الناس، والأصوات المتداخلة، والمبعثرة في الهـــواء أشـــعر بـــأنني على حافة أن أسقط من ذلك العلو المرتفع للأرض.. أموت مثلما فعل أبـــي لحظة سقوطه.

كـــنت تحـــت تأثير خيانتي لرانية أزداد تألما من الداخل. لم أعد أذهب لمكتبة عمي السعيد، تركتها منـــزعجا من أنني لا أصلح لبيع ما هـــو نبيل كالكتب، وأنا على تلك الصفة المشينة في الخلق. وشابني بما جعلـــتني أندم أكثر مما تصورت، خاصة عندما عرفت لاحقا أن أخاها منعها من الدراسة بسببـــي، وأجبرها على المكوث في البيت..

* * *

تـــركت الدراســـة بـــدوري، وأنا أقول لا ينفع معي التعلم ولا القراءة، وأنني لن أصلح لهذه الأشياء، وأنه عليّ أن أفكر في الأشياء التي

أصـــلح لهـــا، ولابـــد أن في مكتوبـــي السماوي شيئا أنفع به نفسي والعالم، شيئا يقدر على هدايتي للطريق الحقيقي..

لم تغرب عني ذكرى رانية خلال تلك الشهور الغريبة حيث لم أكن أفعل أي شيء غير التسكع في أحياء الجزائر العاصمة دون هدف محـــدد، لم أعـــد أتساءل عن معنى حياتي، أو معنى الحياة بشكل عام، تـــركت ذلـــك للزمن الذي سيقرر ما يريده لي، ووالدي الذي كان يموت بصمت لم يعد إلا فرجة يضحك عنها أهل الحي، إلا هو كان ســـعيدا بوضعه الجديد، ورغم عمل أخي بالزنـــزانة إلا أنه لم يكن يملـــك شخـــصية والدي الحادة، والثاقبة، والتي كانت تجعل الجميع يهابـــون منا، كنت مع كل ذلك أشعر بضيق، الزمن يجري بلا معنى، الحـــياة تـــرقص بـــلا هدف، والأحلام الأولى تتبخر نهائيا في ألياف دماغي، وأنا بلا دراسة، ولا عمل ولا أي هدف، لم أعد أطيق نفسي حيـــنها، صرت أنتظر من الفراغ فراغات أكثر، صرت لا أقدر على التمـــسك بأي شيء، كان وقتي يذهب هباءً منثورا، وعمري يتقلص في المشي والنظر بلامبالاة لخطوات الناس التي ظلت تبدو لي باستمرار تعيـــسة، الخطـــوات الـــتي أحسست حينها أنها تمشي هي الأخرى بلامبالاة، كنت في المساء أتردد على قاعات السينما أشاهد أي فيلم أمريكي يجعل وقتي يمضي بسرعة، وتفكيري يتجمد لساعات فلا أفكر أبعد من تلك اللحظات.. الحياة لم تعد مهمة. الوجود مجرد نفثة خيال مسعورة لشخص مريض، تمضي بنا الحياة إلى حيث تريد، ولا تستمر في الطـــريق الذي نريده، الحب وحش يقود لعكس ما نؤمن به، الخير لـــيس هـــو القاعدة، الإنسان حيوان مضر لأخيه الإنسان، تلك هي القـــناعات الـــتي وصلت لها، وأنا لم ابلغ العشرين بعد، وكان وجه أبـــي المـــريض والمقبل على لحظة النهاية تزيد من حدة تلك الحالة

اليائسة والتعيسة، وكنت أفكر أكثر منه في وضع حدا لذلك الانكسار المضني، والهزيمة النكراء.

* * *

هل تعرف لماذا كنت أكرهك؟

سألني سعيد بن عزوز وقد صار يعمل محققا في الشرطة، عرفته في سنوات طفولتي طفلا رث الثياب، تعيس الملامح كان يبدو وكأن السماء غاضبة عليه، أو منتقمة منه لكنه كان مع ذلك نبيها جدا، أو كنت أشعر أنه يزاحمني في الذكاء في المدرسة حيث درسنا معا حتى السادسة فلم يوفق في امتحان الانتقال للمتوسطة، وأثر عليه ذلك واضطر لإعادة السنة بينما انتقلت أنا بسهولة، ولا أدري ماذا حدث في دماغه حينها، لقد شعر بأنني تحديته أو كنت عقبة في طريقه، أو جعلني رمز خسارته، لم أفهم، ولكن كان الجميع يخبرونني بأنه لا ينفك يذمني في كل مناسبة يجيء فيها الحديث عني ويخبرهم بأن والدي هو سبب نجاحي وأنني لولاه ما كنت شيئا يذكر، يبدو أنه كان يكره أبي لأسباب أجهلها أو لم يكن عندي أي رغبة في التعرف عليها لأن معظم سكان الحي إلا قلة قليلة لم يكونوا يحبون والدي، ولم يكن ذلك بالسر الكبير، واستطاع أن يتجاوز عقبة امتحان السادسة بل استمر حتى نجح في امتحان الباكالوريا بينما تركت أنا الدراسة للظروف التي عشتها حينها وكان ذلك بمثابة الانتصار الكبير الذي حققه عليّ، أو حققه لنفسه، وبعد أن دخل الجامعة لم أفهم سر التحاقه بسلك الشرطة، وقال عدنان إنه ربما لم يعد يجد الحافز ليكمل طريق المعرفة بعد أن تركت له الساحة فارغة فضحكت، وسألت عدنان عن رأيه فيه فقال: إنه يخافه، وإن طموح هذا الشخص ليس أن يحقق ذاته، ولكن أن يسحق ذوات

الآخـــرين، وتذكرت والدي الذي كان قد مات منذ سنتين وشعرت بـــنقمة وأنـــا أقول لنفسي: كم ستلد الجزائر من هذا النوع الذي لا يتحقق إلا بتدمير الآخرين.

لم يكن عندي شك في أن والدي ذهب ضحية إيمانه بالزعيم، أو إيمانه بأنه الرجل المخلص الذي يشعر الجزائريين أنهم سيذهبون في ظل حكمته إلى أبعد من باقي الشعوب..

بعد سنوات التقيت به، وقد صار محققا معروفا بمركز شرطة حي بلـــوزداد قـــرأت أخبارا عنه في بعض الصفحات المتخصصة بالجرائد اليومـــية خاصة في ما يتعلق بتفكيك شبكة دعارة سرية كانت تتغطى تحـــت اســـم شركة وطنية للسياحة، وبالرغم من أن الصحف لم تكن تعطـــي أهمية لمن قام بالدورالأساسي في كشف هذه الحادثة أو تلك، وتنسب النجاح ليقظة رجال الشرطة ككل، دون أن تميز هذا عن ذاك، إلا أنها في تلك المرة أبرزت اسم المحقق الشاب الذي تمكن من تفكيك شـــبكة كـــبيرة كانـــت تـــسمم تقالـــيد مجتمعنا المحافظ، وتتاجر في الممنوعات..

استغربت بعض الشيء من ذكر الاسم، ومن التصريحات التي أدلى بهـــا هـــو نفسه شاكرا ضباطه أولا وقبل كل شيء، الذين وثقوا فيه، وأسندوا له هذه المهمة الصعبة والتي كللت بالنجاح.. مؤكدا أن وراء هذه الشبكة مسؤول كبير في البلد (لم يذكر اسمه طبعا) ولكن القانون فوق الجميع..

تعجبت حتى لا أقول احترت، كنت أيامها أعمل محاسبا في مؤسسة خاصة بعد الانفتاح البسيط الذي عرفته الجزائر عندما توفي الزعيم، وكنت أتابـــع التقلـــبات والتحولات بعين مدققة، كما لو أنني شاهد على مرحلة مهمـــة يتطلب الواجب فهمها جيدا، وكانت قراءة الجرائد تساعدني على

www.mlazna.com-رياح الشرق

الفهـــم، ليس لأنها كانت تتضمن معلومات كافية أو تحليلات دقيقة صائبة ولكـــن لأن الـــصراعات الكبيرة التي تحدث بين أهل الظل كانت معظم الـــوقت تحسم على صفحاتها، وتتمظهر في مثل هذه الأخبار والتصريحات التي لا يفهمها إلا من يقرأ بين السطور لا ما هو واضح منها..

لم يهمني من كان وراء الإطاحة بهذا المسؤول الكبير ولصالح من، كـــنت متيقـــنا من أن المصالح تناقضت بين طرف وطرف وكان على واحد منهما (**الأضعف بالضرورة**) أن يدفع الثمن في النهاية، تلك هي قاعدة اللعبة عندما تلعب مع الكبار في حلبتهم الضيقة، ولكن ما أثارني هو ظهور اسم سعيد بن عزوز على ساحة الأحداث. هل بدأ يلعب هو الآخـــر في هـــذه الساحة؟ وكيف؟ ولماذا؟ وماذا يريد أن يحقق؟ أسئلة بـــريئة ولم تكن لتتطور برأسي لو لم ألتقه، وأنا أمشي قرب ساحة أول مـــاي، حينما شعرت أن سيارة توقفت ورائي بطريقة مباغتة، فالتفت فإذا بسعيد بن عزوز نفسه يخرج منها وينادي عليّ:

- ها قبضت عليك.

لم أتبين من ملامح وجهه إن كان يمزح أو يتعمد إغاظتي، فلم أبد أي حـــركة، لكنني لم أخف تضايقي من هذه الطريقة، غير أنه أسرع يبتسم وهو يلطف الأجواء:

- لا تقلق أنا أمزح معك، ليضيف:

- لقد سمعت أنك تعمل محاسبا في مؤسسة طارق كادري..

- سمعت أم حققت في الأمر.

- أوف ما الفرق، هيا اصعد، أدعوك إلى فنجان قهوة.

لا أدري لمـــاذا شعرت أن وراء دعوته لشرب القهوة شيئا آخر، وأنه كان علي أن أحترس وانا أسير، وأنه في النهاية لابد من دفع فاتورة كنت أتمناها غير مكلفة.

تقـــدمني إلى بـــاب السيارة دون أن يعطيني فرصة رفض دعوته، وصعد من الأمام بينما تركني أركب في المقعد الخلفي، قدمني للشرطي الذي يقود السيارة أخبرني أن اسمه مراد، (**هل كان حقا مهم أن أعرف اسمه؟**) فصافحته دون انتباه، إذ ظل يعطيني ظهره، وانطلقت بنا السيارة تجري سريعًا في شارع حسيبة بن بوعلي.

أثـــناء الطـــريق لم يكلمني سعيد بن عزوز، وبداخلي استيقظت الأســـئلة، والذكـــريات القديمة، مواجهتنا ونحن صغار، أشياء من قعر الماضي الطفولي البعيد، أشياء أهملتها عن وعي وأخرى بقيت لصيقة..

خـــيم الصمت طوال مدة ركوبـــي السيارة، فلم يتفوه سعيد بكلمة واحدة، ومن جهتي لم أجد ما أقوله له، فبداخلي كان غليان الأسئلة يعكر مزاجي ويجعلني متشائما للغاية. حتى وصلنا لمركز الشرطة حيث يعمل.

عـــندما جلـــست في مكتبه الصغير، طلب لي قهوة وراح يتعمد إظهـــار لامـــبالاته بوجودي وهو يتصفح ملفات مركونة على مكتبه، (**دام ذلـــك عـــدة دقائق شعرت حينها بالاستخفاف والقهر**) ثم رفع رأسه نحوي وقال مخاطباً:

- هل تعرف لماذا كنت أكرهك؟

- تكرهني..

أجـــبت ساخرا بعض الشيء. (رغم أن الموقف كان يدعو لشيء آخر)

- لأنك كنت متفوقا جدا في الدراسة..

يصمت من جديد، ثم يكمل:

- وأيضاً لأن معلمة العربية كانت معجبة بك أكثر من أي تلميذ آخر، كنت أتساءل لماذا كانت تفعل هذا؟ لماذا كانت مهتمة بك أنت أكثر منا جميعاً؟

أجبت بلا مبالاة هذه المرة:

- لقد مضى على ذلك وقت طويل.

قال بصوت بدا لي مخلوطا بالحزن:

- صـــحيح، أخـــبرتك فقط لتعرف أنني لم أسامح تلك المعلمة قط..

سألته مستغرباً:

- ولِمَ؟

- لا أدرين لنقل أنني شعرت بالغيرة منك، ولكن بصراحة تلك الغيرة هي التي حفزتني لأتعلم أكثر، ولولاها لما كان يمكن أن أصل إلى ما أنا عليه، المحقق المحترم بالشرطة الجزائرية..

ليـــصمت مـــن جديد، وعيناه لا تفارقان الملفات المفتوحة فوق مكتبه، ثم قال:

- هـــل تعلم؟ هنا لا يمزحون أبدا، يأخذون أي شيء مهما كان تافهـــا بجدية، في البداية وجدت صعوبة في الاندماج، ولكن الوقت كاف لجعلك تفهم ما المطلوب منك لتنجح..

- أتمنى أنك سعيد الآن..

- نعـــم ســـعيد، مـــثلما كان والدك سعيدا في عمله، المرحوم أقصد..

لم أفهم سبب تحدثه عن والدي، وظهر على وجهي القلق والشك فجـــأة، ونظرت إلى سعيد بن عزوز بعينين مفتوحتين على الآخر وأنا أحاول أن أجعله يترك موضوع والدي، وأن لا يحشره في الحديث.

عاد للنظر في ملفاته من جديد، كما لو أنه تعمد تركي أغلي من الـــداخل، حتى أنني ندمت بالفعل على قبول دعوته، ولكن تساءلت: ماذا كان سيحدث لو رفضتها؟

شـــربت قهـــوته، التي بردت، على نفس واحد، وقمت من على الكرسي طالبا الإذن بالانصراف، فقال لي:

- الوقت مبكر؟

اضطررت لأن أكذب عليه حينها وأخبره بأن لدي عمل ولا بد أن أصل في الموعد المطلوب.

مد يده مصافحًا:

- علـــى العموم سعدت بلقائك، كنت أنتظر هذه الفرصة منذ زمن.

ابتسمت بدوري ممثلا دور الواثق من كلامه الطيب نحوي:

- أنا أيضاً.

- شيء أخير أرغب في أن أسألك عن أمر.

قلت محتارا:

- ما هو؟

- عن المؤسسة التي تعمل بها محاسباً.

- ما بها؟

- لا شـــيء مستعجل، ولكن قد أتصل بك في الأسابيع القادمة لأسألك عن بعض الأشياء التي تهمنا.

وعاد ليصافحني من جديد وهو يؤكد على سعادته باللقاء بـــي..

* * *

تساءلت وأنا أغادر مكتبه إن كان الموضوع يستحق أن أقلق من أجله، ورحت أسترجع شريط اللقاء متسائلاً إن تعمد سعيد بن عزوز إثارة شكوكي في المؤسسة التي أعمل بها، لم أكن في الحقيقة إلا محاسباً صغيراً من بين خمسة محاسبين يعملون بمؤسسة طارق كادري، دخلت

www.mlazna.com-رياح الشرق

بفضل مساعدة صديقي عدنان الذي صار أستاذا في كلية التجارة وهو الوحـيد الذي بقيت لي علاقة بعد رحلينا من الحي، إثر انتحار والدي المؤسف، بعنا البيت واشترينا بيتا آخر بحي شوفالييه، وبفضله هو دائما درست في معهد تكوين خاص بالمحاسبة لمدة ستة أشهر، وبعدها أمن لي هـذا العمل، وقال لي إن المؤسسة بكل المقاييس ناجحة وإنه يمكنني في سنوات قليلة أن أصبح إطارا مهما بها، وبعدها انخرطت في العمل الذي كلفـت به، وكان يأخذ مني نصف نهاري تقريبا، ولهذا كانت فرحتي عارمـة بالعمل صباحا والتسكع مساءً، والبحث عن شيء ما أكبر من هـذا كلـه.. محـاولا نسيان فترة الفراغ التي عشتها بعد توقفي عن الدراسـة، وتيهـي الطويل دون أن أعثر على أي ركيزة أستند عليها، كـنت أحـسب نفسي قويا بما يكفي لكي أتحدى كل شيء، ولكن الوقت تكفل بالقضاء على تلك الشعلة التي ظننتها لن تنطفئ بروحي، حريصا على حمايتها من أي ريح مسمومة، أو عاصفة قاتلة..

لم أستشر أحدًا وأنا أقرر الالتحاق بالخدمة العسكرية أيامها، وقد تكفلـت بالقضاء على آخر معنوياتي الصحية، وبالرغم من قسوة تلك التجـربة وآلامها إلا أنني خرجت منها أكثر انضباطا من قبل، وأكثر إيمانـاً بالحياة الحرة، لم تعد الحرية كلمات مجردة في رأسي بل صارت حقـيقة ملموسة، أن تكون حرا فهذا هو الغاية القصوى من وجودنا بالحياة..

ثم عامان آخران لم أفعل فيهما أي شيء، تعجبت كيف أنني بعد سنتي الخدمة العسكرية التزمت القعود في البيت، النظر في كتبـي التي بقـيت مـن عهد مضى، محاولة قراءتها من جديد، نسجت، في عزلة دامـت عاما تقريبا، علاقة أخرى مع الكتب، قراءات وتأملات كنت أكتبها يومياً، كنت أبقى في غرفتي لا أبرحها، و لم يكن أحد يكترث في

البيت إن كنت موجودا أم لا، تزوجت أخواتي الأربع من دون أن أعرف، أو بالأحرى دون أن أكترث، كما سافر أحد إخوتي إلى فرنسا ولحقه آخر بعد شهور، بقي البيت فارغا إلا من أخي الكبير ضابط السجن، وأمي التي لم تعد سعيدة منذ الحادثة الأليمة، وارتدت حجابا أبيض اللون، وصارت تدمن على الصلاة وتتهجى قراءة القرآن الكريم بصعوبة، كانت تواسيني كما لو أنها تعلم مصابي الداخلي، وتترجاني أن أفكر في عاقبتي الأخيرة، أتركها تتكلم دون أن أجيبها، أتركها تنصحني كما تريد، تلك عادة أمهاتنا الجميلات أن ينصحننا دائما بالخير، (**أو ما يظنن أنه الخير**) والطريق السليم (**أو ما يعتقدن أنه الطريق السليم**) دون أن يدركن أن هذا الطريق لم يكن موجودا قط، أو لم يعبده أحد لنا حتى نسير عليه في ظلمات هذه البلاد العصية والقاسية.

خرجت بعدها دون أن أنوي على شيء، تحدث معي أخي الكبير في موضوع العمل، وقال إنه يمكن أن يتدبر لي مهنة معلم بالسجن، فابتسمت، (**دون إرادة مني ابتسمت ليس بقصد التهكم، ولكن لسخرية الأقدار بالتأكيد**) وأنا أرفض قائلا:

إنها مهنة نبيلة، ولكن أنت تعرف كم أكره عالم الزنزانات.

فلم يحاول أن يقنعني أكثر من ذلك، ولم يعد للحديث معي في هذا الموضوع، تركني على راحتي، وتركت نفسي تهيم من جديد دون هدف أو غاية.

هِمت لشهور عدة، (**أتعمد استعمال هذه العبارة**) ولقد وجدت نفسي خلالها وأنا هائم بالفعل ألقي بنفسي في يَم مدينة الجزائر كمن يفقد بوصلته نهائيا، بدأت أترك نفسي تمشي بلا غاية، أو هدف، سيرًا غريبًا نحو نهاية ما، لم يقدر لها مع ذلك أن تتحقق.

.. لم يهلكني كل ذلك التيه الداخلي بقدر ما كان يزيد من إحساسي العميق، الغامق، العنيف باليتم، فراغ وحشي، سرحان لانهائي، صمت عميق، عنف غير مرئي، وأشباح يظهرون ويختفون، لشد ما كانت تبدو لي سيرتي أشبه بسيرة هذه المدينة الملطخة بالأحلام والأوهام الكثيرة، لشد ما كنت أشعر بأنني مثلها لا أملك أصلا أتجذر بداخله، وأغصانا أتطاول معها، مدينة أشبه بالحلم الكابوسي، أو الكابوس الحلمي، تنام بحسرة، وتنهض بألم، تنتظر شيئا ما ينقذها من هلاكها المحتوم، ومن السادة المختفين في قلعة سرّية وهم لوحدهم القادرون على حياتها أو موتها، هم لوحدهم من يحددون لها بالميليمتر مسافة أحلامها.

لم أتصور أنني سألتقي أيامها برانية من جديد، رانية القصة غير الممكنة والحلم المجروح، والتي بالكاد برأ جرح عشقها الكاوي كنار حارقة. عندما شاهدتها في دكان لبيع الملابس الجاهزة، تجمد الدم في عروق قلبي، شعرت برجفة غريبة تسري بداخل ألياف روحي، ابتسمت دون أن أبتسم (**هكذا أتعمد من جديد إظهار تلك الابتسامة المخيفة والتي لا تقول إلا عكسها**) ثم امتلأت عيناي بالدموع، وأنا أسترجع آخر صورة بقيت راسخة بذهني وأخوها ينهال عليها بالضرب الموجع والركلات غير الرحيمة، وأنا واقف كصنم صامت وجبان لا أفعل شيئا، مدركا في طوايا نفسي أن كل ذلك الذي يحدث، يحدث نتاج ما أقدمت عليه من وشاية، بقيت لسنوات تؤنب ضميري بقسوة..

فكرت أن أذهب نحوها وأكلمها، ولكن خفت، خفت منها ومن نفسي ومن الحياة الظالمة التي تضعنا في حبائلها التعيسة، لم تتغير رانية كثيرا بل إن قلت الصدق زادت حمرة وحنتيها، وبراءة وجهها الجميل،

www.mlazna.com-رياح الشرق

زاد جسمها طولا بعض الشيء، كانت في قمة أنوثتها، كالعادة مشتهاة ومرغوب فيها، وبينما أنا غارق في تأملها من خلف باب المحل إذ بـــي أنتـــبه لنظـــرتها نحوي، نظرتها المتفاجئة هي الأخرى برؤيتي، المحتارة في أمـــري، الغامضة والغاضبة في نفس الوقت، انتظرت كل شيء إلا أن تقترب مني وتقول مبتسمة:

"رضا كيف حالك؟"

ظنـــنت نفسي في حلم لا يمكن تصديقه، هل نسيت ما حدث لها بـــســـبـــبـــي؟ هل نسيت أنها مُنعت من إكمال الدراسة بسبب وشايتي؟ مـــاذا يحـــدث لهذه المرأة الآن؟ وقد صارت كذلك بالفعل، امرأة فاتنة ومفـــتوحة، أم أنـــني أتخيل لا غير، خيال يحول الوهم حقيقة، والحلم واقعا، غير أن اقترابها مني لم يكن تخيلا بالتأكيد، لقد تركت ما كانت تحملـــه بـــين يديها وجاءت نحوي، وسألتني عن حالي، فارتبكت، وأنا أحـــاول أن أحني رأسي خجلا منها، كم كنت صغيرا أمامها في تلك اللحظـــة، صـــغيرا لدرجة يتعذر وصفها، صافحتها بيد مرتجفة، بينما راحت أسئلتها تمطل عليّ:

- كـــيف أحوالك، وأحوال والدتك، بعد تركككم الحي لم نعد نسمع أي خبر عنكم..

- صحيح..

وأضفت بصوت منخفض:

- لقد أصبحت امرأة

- وأنت رجل بالسلامة عليك.

خفـــت أن أنـــزلق في الكلام وأسقط في بحر الذكريات الأليمة فتتذكـــر مـــا حـــدث، والذي بقي يؤرقني لسنوات، غير أنها هي التي بادرت بالكلام:

- كما ترى أعمل الآن في هذا المحل..

- جميل..

- وأدرس بالمراسلة نكاية في أخي الكلب، هل تعلم أنه في السجن الآن يقضي عقوبة طويلة، لقد ضرب شخصًا وكاد يقتله لا لسبب إلا لأنه نظر إليّ من بعيد.

صمت، لم أجد ما أقوله، خفت، بقيت أرسم ابتسامة بلهاء على شفتي، ولا أعرف إن كانت تدرك حجم ما أشعر به من تأنيب ضمير وهي تقول أمامي كل هذا الكلام..

واصلت حديثها بنفس العذوبة والصراحة الجميلتين:

- إنني الآن حرة افعل ما أريد، الحق لم يعد يهمني أحد إلا نفسي، وحتى أمي كرهتها لأنها تواطأت دائما ضدي، كانت تقف إلى جانب أخي وأبي، كما لو أنهم هم فقط من يملكون حرية التصرف في حياتهم كما يشاءون..

ظلت تتكلم، وأنا أسمع حتى ناداها صاحب المحل، وهو يشير لزبائن يطلبون الاستفسار عن ثمن بعض الملابس، فاعتذرت مني، وقالت مودعة:

- يمكنك أن تطلبني في أي وقت.

و:

- ينتهي عملي الساعة الخامسة مساء.

من فرط فرحي برؤيتها بقيت أدور بنفس المكان لم أبرحه حتى الساعة الخامسة، غير أنني لم أقدر على الذهاب نحوها، انتظرت تلك الساعات الطويلات فقط لأشعر بسعادة خفية أنني أنتظر شخصا عزيزا عليّ، ولكن ما إن رأيتها تخرج من المحل مع زميلة لها، وتسير دون أن تلتفت لا إلى اليمن ولا إلى اليسار بحثا عني، حتى عجزت عن مناداتها، لقد سرت خلفها فقط، من بعيد، وأنا أرقب حركاتها السريعة، كما لو

أنهـا تقفـز، وهي تمشي، جمال أنوثتها الهمجي، والذي كان يجلب لها دائمـا المعاكسات في الطريق، وبداخلي كان قلبـي ينبض بسرعة، أو يـريد أن يقفـز نحوها ويمسكها ويبتلعها بين يديه، ويأسرها في مكان غامض بين الجسد والروح.

لم أتجـرأ علـى الذهاب، بقيت فقط أنظر إليها بحماس ملتهب، وبفرح غامر وبسعادة متلألئة كالنجوم.

* * *

بت ليلتي تلك أحلم من جديد برانية مسعودي..

كان تشردي الغريب وتيهي الكبير بلا غاية أو هدف قد أوصلاني لـنقطة البدء أي إلى رانية التي زرعت وحدها تلك البذرة العصية على التصنيف..

الحب لا نعرف ما هيته، لكن يمكن الإحساس به، هذا ما قعدت أقـوله لنفـسي ليلا وأنا أبحر في خيالي الجامح الذي نشط فجأة وراح يرسم خيوطا من حرير وآفاقا واسعة لا تحد..

ما الغاية من الحياة؟

يكفي أن ينبض القلب بتلك السرعة الخاطفة حتى نقول هذا هو المنتهى/المشتهى..

هذه هي بداية الحياة ونهايتها، و لم أنم إلا وأنا أقنع نفسي أنني لابد من العودة لتلك المرأة والحديث معها..

* * *

لم أعـد أفكـر فيما دار بيني وبين سعيد بن عزوز من حديث، خلقـت بسرعة مسافة مع الآخرين، كل الآخرين، وحتى هذه المدينة

الـــوقحة وضعتها بين قوسين، ليذهب الجميع للهلاك، لتسقط الجدران التي تحجزنا كالزنازين بداخلها، لأكن حُرًا وسعيداً، كما لو أنه لم يعد عندي وقت لأضيعه، والفرصة أمامي مفتوحة، قريبة جدًا، وأنه عليّ أن أفوز بها، أن أنتصر لأول مرة للشيء الأعمق بداخلي، لجنون عواطفي وصدقي الحقيقي مع نفسي..

ارتبكت طبعاً (تلك سمة العشاق الأنانيين) وأنا ألتقيها من جديد، انتظـــرتها طويلا بالقرب من المحل، لم تلاحظ وجودي هذه المرة كانت مـــنهمكة في العمل، مشغولة مع الزبائن، تتحرك في كل اتجاهات المحل الواســـع والكبير، كنت مبتهجاً، وأنا أراها تعمل بذلك الشكل، كأنها في حالـــة مـــن الـــسعادة القصوى هي الأخرى، وحينخرجت وهناك شـــاهدتني بالقـــرب من الباب" آه أهلا رضا". فرحت بنطقها لاسمي، وقـــبل أن أحيـــيها راحت تعتذر "آه متأسفة، اليوم لا استطيع عندنا ضيوف في البيت" لعبت دور المتفهم، قلبـــي كاد ينـــزلق، وقلت "لا بأس" ردت بتعثر وهي تعتذر من جديد، قضيت ليلة كابوسية بالفعل، زاد حبـــي لها، زاد تعلقي بها، يكفي أنها تضغط على هذا الوتر لأنتهي بالفعـــل.. لأصبح مجرد ورقة في مهب الريح. لأصبح من جديد ذلك المراهق الذي اكتشف حبه الأول من خلالها..

لم أفهـــم كيف أنه ورغم مرور كل تلك السنوات لم يتغير شيء من ذلك اللهب، وكيف أنه كان يكفي لقاء صدفوي برانية مسعودي لأعود ذليلاً لمحطة البدايات الأولى، للحب الذي سكن تلك الروح وأنا في طريقي لوعي رجولتي لأول مرة.

خفت أن يحدث لي نفس الشيء فتباطأت في الاتصال بها، كتمت شوقي ولهفتي في مكان عميق بروحي، استعذبت عذابـــي في انتظارها، بـــدوت غريبا خلال تلك الأيام التي مضت أطول من الصحراء، حارة

www.mlazna.com-رياح الشرق

وبـــاردة، متلألـــئة وغامـــضة، مجنونة وساحرة، أشياء كثيرة اختلطت بالقلـــب، تمازجـــت بالـــروح، شهقات واستيهامات، اللعبة الأولى، الغموض المفتوح على شيء تصورته حقيقيا هذه المرة.. لن أفقد الأمل، لـــن يخيـــبني الحظ مرة ثانية، هذه المرة ستكون رانية مسعودي لي، لي وحـــدي، ولن يقف في طريقي أي أحد، لقد كبرت، وصرت رجلاً، وهي صارت امرأة، سأمد يدي نحوها، سأضع يدها على قلبـــي وأقول لها: أنصتي لدقاته، أنصتي لخلجات روحي، استمعي للألحان التي يعزفها بحـــنان وحب، وقولي لي ما تشائين بعدها فسأكون رهن إشارتك، أنا عاشقك المتيم، وأنا عبدك الضعيف.. أنا بدونك لا أساوي أي شيء، أنت لحن حياتي ومعناي في هذا الوجود.

جمـــدني البرد يوم قررت، بعد اختفائي لمدة أسبوع، رؤيتها، وأنا أنتظـــر بـــزوغها مـــن خارج المحل، البرد والمطر، لكن كانت حرارتي الداخلـــية تلسع عظام روحي وتنشيني بحيث كان جمودي الخارجي لا يعكس وهج روحي الداخلي..

خـــرجت رانية أخيرا من المحل، ورأتني، ارتبكت للمرة الألف، لم تظهـــر أي علامة زهو أو فرح، بدت باردة مثل برودة الطقس، خفت أن شـــيئا ما حدث، تزعزعت الأحلام، تضعضعت الأوهام، وعادت المخاوف لتجمد روحي من الداخل.. لكنني تجرأت وسألتها:

- ماذا هناك؟

أجابت بصعوبة:

- خبر سيء.

- غير الخير إن شاء الله..

- أمي تقول إن أخي سيخرج هذا الأسبوع من السجن وإنه حالف بالستين أن يقتلني لأنه سمع أنني أعمل وأدرس خارج البيت.

كـــدت أصـــرخ: ما هذا الكلام؟ كيف يمكن ذلك؟ ولماذا عاد أخوها الكلب ليحشر أنفه الآن، وأنا في قمة نشوتي بلقائها من جديد، في قمـــة حلمـــي بالعثور عليها مجددا، في كثافة أحاسيسي نحوها، لماذا يخـــرج اللعـــين في هذه اللحظة بالذات؟، لماذا لم يخرج م قبل أن أعثر عليها مجدداً؟ م قبل أن أغرق في هذا الحلم الفردوسي ثانيةً، رحت ألوم حظـــي قبل أن ألوم مأساوية الحياة نفسها التي ترسم طريقا متعرجا غير الذي انتظرناه منها..

أمسكت يدها بحنان، حاولت أن أهدأ من روعها، وأنا أقول: أنه لا داعي للخوف، أقول أي كلام من شأنه أن يخفف من ذلك الرعب الذي رايته يزغرد بعنف في عينيها الصغيرتين. خوف أعرفه جيدا، رايته مرات عديدة في عينيّ أمي الحزينتين، في عينيّ أنا أيضا عندما كان أبـــي يهدد أو يغضب، ذلك الخوف الرهيب الذي يشبه سحابة غاضبة تنذر بالشؤم وتهدد بأقصى الوعيد.

* * *

حاولت الاتصال بعدنان لأستوضح منه الأمر فلم أجده في الكلية وقـــيل لي أنه سافر لحضور مؤتمر علمي في بلجيكا، لم أحاول أن أسأل من أعرف عن طبيعة هذه المؤسسة، وخفت أن أثير حولي شكوكا ما، وقلت بعدها لقد وسوسني سعيد بن عزوز ولا شك أن ذاك هو مراده.

غـــير أن اتصاله بـــي للمرة الثانية حتى لا أقول استدعاءه لي إلى مكتـــبه فاجئني بالفعل، وجعلني أرتعب نوعا ما، وأطرح أسئلة لا بداية ولا نهاية لها..

استقبلني بحفاوة وطلب لي قهوة وحدثني قبل أن يلج الموضوع عن أشياء تافهة تتعلق بكرة القدم وحبه للغناء الجديد الذي بدا يغزو مسامع

سكان الجزائر العاصمة في المدة الأخيرة مؤكدا على طابع الانفتاح العام الذي يسود البلاد:

- كل شيء يتغير حتى الجرائم تبدلت اليوم وتحتاج لفطنة كبيرة كي نحاربها..

كـــنت أهز رأسي موافقا دون أن أتفوه بكلمة، منتظرا دخوله في الموضـــوع الذي طلبني من أجله فجأة، لكنه تأخر كثيرا قبل أن يصرح لي بما يريده:

- أنت صديقي، وأنا لا أريد أن أظلمك معي..

ثم صمت، شعرت بالغيظ، فقلت له محتقناً:

- حسنا ماذا هناك؟

- شيء يخص والدك.

- ماذا قلت؟

- والدك المرحوم..

- ما به والدي؟

- أنت تعرف أن منصبـــي يسمح لي بالتحقيق في كل شيء، في ملفات جديدة وأخرى قديمة طواها النسيان..

- إلى أين تريد أن تصل؟

- لا تقلـــق لـــيس الأمـــر صـــعبا ولكـــن قد يحرجك بعض الشيء.

- كيف يحرجني؟

- لا أدري كـــيف، ولكن الموضوع حساس نوعا ما ولكن لا تقلق، أنا هنا لمساعدتك..

- ســـعيد، لحـــد الساعة لم أفهم أي شيء، والدي والموضوع حساس ماذا هنالك؟

www.mlazna.com-رياح الشرق

- سـأقول لك بصراحة، هناك أشخاص تقدموا بشكاوى ضد والدك.

- شكاوى ضد والدي..

- أنت تعرف ماذا كان يعمل والدك.

صـمت، وأحسست بالارتباك، وفكرت أنني لن أنجو من مخالب هـذا الثعـبان هذه المرة، بقيت صامتا و لم أبد أي ملمح يثير فيه حس الانتصار، لكنني قمت فجأة من مكتبه:

- لقـد تـوفي والدي ولن أسمح لأي شخص أن يمس ذاكرته بسوء.

قلتها بغضب، قلتها بعنف، وظننت أن تأثيرها سيكون حاسما، غير أن سعيد بن عزوز سرعان ما تبدل كلامه معي وهو يأمرني بالقعود:

- هيا اجلس أين تحسب نفسك يا بغل؟

فاجـأني الـصوت الغليظ، الطريقة السيئة في المعاملة، العنف اللفظي، السب، الأمر والنهي، وأفحمني في نفس الوقت، تشنجت عـضلاتي، وأحسـست بدمـي يتجمد في عروقي، وأحسست أن جسمي لم يعد قادرا على الحركة، وبقيت أنتظر ما ستسفر عنه هذه الحكاية..

ساد صمت لثوان معدودات، ليعود فجأة لمدوئه الأول:

- أنـا أريد مساعدتك وأنت تستفزني بهذا الشكل، أين تحسب نفـسك؟ أنت في الجزائر يمكنني أن أرميك الآن في زنـزانة ولن يسمع بك أحد من اليوم.

"لن يسمع بـي أحد من اليوم.."

لم يكـن تهديـده هو المخيف، كل الناس تهدد بالجزائر، القوي والضعيف، لكن الإحساس بأن سعيد بن عزوز كان بالفعل يملك تلك

القدرة على ذلك، يستطيع أن يحدد مصيري في هذه اللحظة، أن يقضي على أي معنى لوجودي لحظتها..

"أنت في الجزائر.. هل تفهم؟"

"نعم أفهم" قلتها بداخل صدري كجريح، أرعبني الموقف بأكمله، الحياة والموت يمتزجان في لحظة واحدة ويتحولان إلى كلمة تختصر معاني كثيرة: الغياب، النهاية، البشاعة، الصمت، كثير من الاهانة.

ليس غير كلمة "إهانة" ما أثارتني بعنف، وقمت من جديد متحديا وصرحت في وجه سعيد بن عزوز:

- لن أقعد ثانية في مكتبك وإذا رغبت اعتقلني من الآن فلن أرضخ لشخص سيء مثلك.

لم أحسب لتحدي أي حساب حينها، واجهته فقط، تحديت سلطته، وتحديت بالأخص نفسي، وقمت منصرفاً، لم تبدر منه حركة. تركت سعيد بن عزوز خلفي يغلي حتما، مثلما تركني هو، ولم أسمع صوته حتى وأنا أصفق الباب من خلفي..

خرجت من مركز الشرطة مسرعاً، وكنت في كل لحظة أنتظر يدا ما تقبض عليّ، صوتا يأمرني بالتوقف لكن لم يحدث أي شيء، حتى وجدتني في الشارع أتنفس هواء حي بلوزداد الملوث..

* * *

اتصلت بأخي ضابط السجن وأخبرته بما دار بيني وبين سعيد من كلام، فبقي يستمع إليّ منتبها لكل كلمة أنطق بها، ثم أخبرني أنه سيتكفل بالأمر..

تركته يتكفل بالأمر وسافرت لمدينة بعيدة كما طلب مني أخي ذلك، أخذت عطلة أسبوع من العمل، وركبت قطار عنابة السريع،

كنت أرغب في الابتعاد أكبر قدر ممكن عن كل ما يربطني بعالم سعيد بن عزوز.. بالمدينة التي ولدت بها، وكبرتبداخل أقفاصها المغلقة، مدينة أحلامي وسجن آمالي.. قضيت أسبوعي العنابي متنقلا بين ساحة الوسط وكورنيشها، متجولا بين أزقتها المفتوحة، دون رغبة في الاختلاط بناسها وسكانها، فلم يكن ذلك همي بالفعل، غير أن القدر جمعني بماضيّ فجأة، من خلال شخص تعرف عليّ وناداني باسم آخر..

- رياض..

ظننته أخطأ ولكنه اقترب مصافحا وهو يقول لي:

- هل نسيتني؟ لقد كنا في جماعة السرداب..

وبسرعة تذكرته، وتذكرت اسمي النضالي رياض، وأن اسمه كان رفيق، فتصافحنا وطلب مني أن نجلس معًا، ونشرب قهوة، وبالرغم من أنه كان آخر همي أن أتحدث مع شخص لم تربطني به علاقة قوية، وفي فترة لم تكن تعني لي الكثير إلا أنني قبلت دعوته، فماذا كنت سأخسر حينها، ماذا كنت سأخسر أكثر..

- تركتنا بسرعة في الفرقة، ومع ذلك لم يغضب منك أحد..

- لقد انضممت بدافع الفراغ لا غير، وأصدقك لم أحس نفسي أصلح للنضال أيامها..

- لقد خرجت أنا أيضا بعدك بشهور قليلة بعد اعتقالات حدثت في الجماعة، هربت إلى هنا، ثم استقريت، هل تعلم؟ لقد تزوجت منذ سنة فقط، وعندي ابن اسمه محمد أريد له أن يعيش بكرامة في بلده..

تحدث عن نفسه بهذه الطريقة العفوية، كان يتكلم وأنا أرتشف قهوتي ببطء وأدخن سجائري الأولى بغير حب، مضى على ذلك العهد

www.mlazna.com-رياح الشرق

أكثر من عشر سنوات، تغيرت أشياء كثيرة، مات الزعيم، وجاء للحكم شخص آخر، واستوطن الفساد البر والبحر والبلد يسير إلى الأمام دون توقف..

قال رفيق مبتسما وهو ينتقد نفسه:

- تأسسنا ضد الحكم المفرد ولكن بعد وفاة الزعيم شعرت أننا أخطأنا في توجيه السهام، لقد كنت شابا مندفعا والعيب في القادة، هم كانوا يحللون ويسيروننا بالطريقة التي يريدوننا أن نسير بها.. سرنا خلفهم وعندما بدأت الاعتقالات لم يعتقلوهم بل نحن، تصور، هم تمكنوا من الفرار والبعض قام بصفقات مشبوهة مع النظام، لقد صاروا اليوم من الوجوه البارزة فيه..

كان يتكلم بانكسار واضح، وعلى وجهه علامات رغبة في الانفجار والبكاء، لقد ضاع خيط الهداية، وهو بالتأكيد يشعر أن الأشرعة تمزقت والسفينة تتمايل راقصة قبل أن تغرق..

لم أجد بما أواسيه، فقط بالإنصات العميق لكل ما كان لسانه يدلق به، كان يمكنني أن أكون مثله، لو بقيت أطول فترة في تلك الجماعة، لكن لم يكن ذلك قدري بالتأكيد، لقد هربت بجلدي، ولكن كما لو أن عقرب الوقت لم يتحرك بعد، فلا أزال أحلم بالهرب من جديد ولكن إلى أين.

تركت رفيق مع بقايا أحلامه المستمرة، الحياة في عنابة مع عائلته، كان متفائلا: هذه الأرض كما تورث البعض الحزي والهوان تورث البعض الآخر الكثير من الشجاعة والصمود

تمنيت لو كنت مثله حينها أملك شيئا من ذلك اليقين الذي يجعله يأمل، ويحلم بغد أفضل لأبنائه.

"نحن خسرنا المعركة" يقول، ويضيف بعدها "أتمنى أن يقدر أبناؤنا على تحمل تبعات الحياة في بلاد قاسية كبلادنا.."

شجعته على المضي دون أن أطرح أمامه همومي، أو أشرح له سر هروبـــي لعنابة، كنت هاربا مثله ولكن لسبب آخر، لقد كان بداخلي شـــعور جـــارح بالمهانة، إن الإنسان لا يقدر على تحمل بأنه مهان في بلده، محتقر، وضعيف، ولاشيء يسنده عندما تضيق به الطرق وتسد في وجهه الأبواب.

تحدثت معه عن حتمية الوضع الحالي، الحتمية التي تسيرنا، وقبضة الحديـــد المحكـــوم علينا أن نعيش في ظلها، وقلت له مصارحاً: "التعب يشلنا، مازلنا في عمر الشباب حتى لو فارقنا العشرين بعقد إلا أننا فهمنا الدرس، وهو أنه لا يوجد خلاص..

لم يكن متشائما مثلي، ولكن كان متعبا أكثر مني..

ودعته مبتسماً، لقد كان على ثقة من شيء واحد على الأقل، "ما خـــسره لا يجـــب أن يخـــسره ابـــنه، وأن الحياة مستمرة، المعركة لن تتوقف.."

* * *

ماذا يربح الإنسان؟ وماذا يخسر؟

لم أقـــيم الحوادث من هذه الزاوية، نظرت للحياة على أنها مجموعة من التجارب التي تجعلنا نمضي في طريق ما، وأنه نادرا ما نكون أحرارا في خياراتـــنا، كما لو أن هنالك جبرية أقوى من إرادتنا، لم أرغب في نـــزع المسؤولية عن نفسي، كان عقلي يقول لي إن الخيارات المتاحة لـــنا دائمـــا ضيقة أو محصورة بين "لا" و"نعم" بين الظروف التي نحيا بداخلـــها والأحـــلام التي نحاول تجاوز مثبطات الواقع من خلالها، مثل

الحب، ذلك الحلم الجميل الذي نرغب من خلاله في القبض على شيء آخر، ورقة جديدة نكتب عليها أسطرا مختلفة، أو كمنجة نعزف على أوتارها موسيقى جديدة للكون بأكمله.

* * *

اتصل أخي الكبير بـــي عبر الهاتف:

- لا تقلق لقد حلت المشكلة، ويمكنك أن تعود.

ســـألته مـــستغربا كيف حلها مع ذلك النحس، فلم يجبني، وقال عندما تعود سنتكلم في الأمر..

رغـــبت بعدم العودة، استلطفت مدينة عنابة، ووددت لو أمكث فـــيها مثلما فعل قبلي "رفيق"، هاربا بجلده من قتلة الأحلام وسجانيها، من كل من يقف ضد أن نكون أحرارا في هذا العالم.. غير أنني عدت في الغد، وأنا جد متلهف لمعرفة ما دار بين أخي وسعيد من كلام حول القضية..

* * *

لا يهـــم مـــا حدث بيني وبين سعيد بن عزوز.. فلقد ربطته بقصتنا القديمة وحقده المتوغل في صدره وبتلك الأشياء التي لم أتبينها جـــيدا حينها، حبه لمعلمة العربية وحبها لي، غير أن ما كان خافيا كـــان أعظم من هذا بكثير وسيسرد أخي الكبير لي القصة مختصرا إياهـــا في شـــيء مـــرعب حدث أيام كان أبـــي مديرا للزنـــزانة وجلادا فيها..

كـــنت أعـــرف بأن تاريخ أبـــي سيلاحقني إلى أن أموت، وأن بـــصماته ستبقى موشومة داخلي، وأن أسراره الخفية ستدفعني للهلاك

www.mlazna.com-رياح الشرق

المحتوم، أو ستبقيني في تلك الدائرة الجهنمية من الخوف والعنف وترقب المخاطر في كل زاوية أدنو منها..

حكا أخي باختصار لأنه لم يكن متعودا على الإطالة في الحديث معي:

- لقد كان هو صاحب الشكوىّ ضد أبينا..
- ماذا؟ هل عذبه أبـــي هو أيضا؟

لم يكـــن أخي يحب كلمة تعذيب التي نطقتها بقشعريرة واضحة، وأنا أتقزز وأشمئز في وجهي، فقال مستدركا:

- لا لم يقـــم بالـــواجب معه.. لقد كان والده متهما في قضية خطيرة..

ولم يكمل، وفهمت القصة بعدها، غير أن ذهني لم يذهب لأكثر مـــن اســـتجواب واستنطاق، لم يدخل أخي في التفاصيل التي وددت معرفتها حينها، كل التفاصيل، لكنه قرر أن يلتزم القصر في الحديث:

- حـــدثت أناســـا مهمين، والملف أغلق، ولقد كلمت سعيد واعـــتذر مني على طريقة تصرفه معك، كل شيء عاد لوضعه الطبيعي.

استفـــسرته عمـــا فعله والدي لوالده، وما هي التهمة التي كان مورطا بها، فصمت، وقال لي:

- هل تريد حقا أن تعرف؟
- بالطبع..
- هناك أشياء لا تسر في تاريخ والدنا..
- أدرك ذلك، ولكن يجب عليّ معرفتها مادامت تطاردني اليوم
- أقـــصد، لقـــد كان يؤمن بمهمته، ولكن أحيانا كان يتجاوز الحدود.

- كيف يتجاوز الحدود؟
- مثلما حدث في قضية والد سعيد بن عزوز..
- ماذا حدث؟ هذا ما أرغب في معرفته.
- حـــدث شيء غير إنساني بالمرة، لقد أُمر باستنطاقه في قضية خطيرة، لكنه لم يعترف بأي شيء.
- وماذا بعد؟
- لقـــد كان الضغط على والدي كبيرا كي يحصل على نتيجة يبرهن فيها على تآمر هذا الشخص ضد بلده..

صـــمت بعـــض الوقت ثم عاد للكلام متحاشيًا النظر مباشرة في وجهي:

- أحضر زوجة الرجل وهدده بـــ..
- والدي فعل ذلك..
- الأوامر كانت واضحة، ولم يكن بوسعه الرفض.. وإلا كانت العواقب وخيمة ليس عليه فقط ولكن علينا جميعاً..
- فعل أبـــي ذلك حقا..
- المشكلة لم تكن هنا..
- ماذا؟
- أبـــونا انهـــارت نفسيته بعدها، لأن والد سعيد شنق نفسه في السجن..
- لم أسمع بالقصة من قبل.
- ومن أين لك أن تسمع. كانت هذه القصص تحدث في السر.. وأضاف بعد صمت قصير:
- لم يكـــن ذنب والدي حينها، ولكن التحقيق السيء هو الذي قاد إلى هذه النتيجة المأساوية.

- التحقيق السيئ..
- نعم، لأنه بعد انتحار والد سعيد بن عزوز تبين أنه لم تكن له علاقة بالتهمة التي وجهت له وأنه اشتبه فيه لا غير..
- كل هذا حدث بسبب شبهة فقط..
- للأسف نعم، أنا أنصحك أن لا تقترب من الآن فصاعدا من السعيد، لا أدري ما هي نواياه، ولكنني حذرته وهو فهم الإشارة جيدا، ليس بإمكان أحد النبش في الماضي السري لبلدنا..
- لا أحد.
- نعم لا أحد.

لم يكن بوسعي وأنا أتلقى هذه الأخبار إلا أن أشفق على سعيد بن عزوز، لقد حرمه والدي من نعيم والده، لقد ظلمه والدي بالتأكيد، وعاش حياته كلها وهو يرعى كل ذلك الألم السري بمكان ما في داخله، كل ذلك الحقد، كل تلك الأحاسيس التي لا يشفى منها الإنسان، وددت لو تمكنت من رؤيته مجددا، ومن الاعتذار له، ربما لن يفهم سلوكي إلا على أنه خوف منه، ربما كان يظن أنني كنت أعرف هذه القصة وبقيت أمثل أمامه دور الابن الوفي، بالتأكيد كنت وفيًّا لأبي، كنت وفيًّا لمن لم أملك القدرة على النظر إلى وجهه بعين مرتفعة، كان يخيفني، كان يجعلني أحس بصغر روحي وضآلتي أمامه، وكان يتعمد ذلك، أكان يكفيه أحيانا أن ينظر نحوي حتى أذوب، نعم أذوب في مقعدي، كما لو أن وراء نظرته تلك كانت هناك دائما قوة عجيبة لا أدري من أين يأتي بها؟ أو كيف استطاع أن يجعل نظرته مفترسة وقاتلة حينما يرغب في جرح داخل واحد منا، نحن أفراد عائلته، فما بالك بالآخرين الذين كان يتحكم

في رقابهم، الذين كانوا يقعون بين يديه، أو يضعهم القدر في سراديب زنازنه المظلمة..

وجدت فجأة لسعيد بن عزوز كل الأعذار للحقد عليّ، للتربص بـــي، وحتى لأخذ ثأره مني، لقد فعل له والدي ما لا يغتفر، وفهمت من حينها أننا كنا نشترك في نقطة واحدة، انتحار والدينا، والده انتحر بسبب الظلم وأبـــي بالتأكيد بسبب تأنيب الضمير..

أدخلـــتني هذه المعلومات في كآبة مروعة لم أستطع التخلص منها بـــسهولة، ولولا أن رانية مسعودي سألت عني في تلك الأيام لوجدت نفسي في بئر الكآبة العمياء أغرق من دون أي أمل في النجاة.

* * *

لا أدري كـــيف عرفت عنوان بيتنا الجديد بحي شوفاليه، عندما عدت بعد جولة صباحية لم يكن لها هدف محدد، وجدت أمي تستقبلني بخبر زيارة رانية لنا، سألتها على الفور إن كانت موجودة؟ فردت بأنها ذهبت، وأضافت:

- قالـــت أنهـــا تحتاجك في أمر مهم، وأنها تنتظرك بالقرب من مكان عملها هذا المساء، وأن الأمر مستعجل.

شكرت أمي وعدت من حيث أتيت، صحيح، كان رأسي فائرا بمـــا يكفي من غم وهم، ولكن لم أكن أستطيع حينها التخلي عن رانية في هذه الظروف العسيرة، إنها تحتاج لي، تحتاجني كي أنقذها من قبضة ذلك الوحش أخيها كريم.

كـــنت أتمشى وأنا أفكر بأي طريقة يمكنني أن أنقذها، وخطرت بـــبالي فكـــرة واحدة ظننت حينها أنها المخرج النهائي لمشكلتها تلك، وأسرعت المشي نحوها كي أخبرها بذلك..

www.mlazna.com-رياح الشرق

فكرت أن أقترح على رانية الزواج، حتى لو لم أكن مؤمنا بذلك العقـــد الاجتماعي بأي شكل من الأشكال، ولكن بما أنه سينقذها فلا بـــأس، ثم إنهـــا رانية، شعلة قلبـــي المتوهجة، وبريق عينيّ المضيئتين، وســـحر حبـــــي المـــتألق، وروحي التي لن تشفى إلا بتعالينا في سماء واحدة، ووقوفنا على أرض مشتركة.

عندما رأتني فرحت، ظهر ذلك على ملامح وجهها التي تبرعمت كما الزهور، وسارعت بدورها نحوي:

- الحمد لله أنك جئت.
- طبعا وماذا كنت تظنين؟
- أعـــرف أنـــني أثقل عليك، ولكن سيخرج كريم بعد يومين، وحتما سيمنعني من العمل والدراسة، وسيأخذ كل ما ادخرته طـــوال هذه السنوات، وسيحاول أن يرغمني على المكوث في البيت.
- لا تخافي رانية أنا معك، عندي حل لكل هذه المشاكل..
- لهـــذا استنجدت بك، أعذرني لأنني أطلب منك هذه الأمور، أنت بمثابة أخي، أليس كذلك؟

عندما نطقت كلمة "أخي" لا أدري ماذا حدث في مكان ما من أعماقـــي، ولا أدري لمـــاذا صـــمت، وابتلعتني دوامة غريبة من الريبة واليأس، وتساءلت: ماذا تقصد بأخي؟ هل تعمدت قول شيء آخر لي؟ هل أنا غالط في تفكيري وأحاسيسي؟ صمتت، وتركتها تقول ما تريد قوله لي:

- أخـــي يحـــبك بالتأكـــيد، وكان يسمع كلامك، يمكنك أن تساعدني في إخباره بشيء مهم..
- أخبره بماذا؟

- أن هـــناك شخصا يريد الزواج مني، شخصا أحبه منذ كنت مـــراهقة، انه حبـــي الحقيقي، أنت تفهم الحب خير من أخي الجاهـــل، أنـــت قرأت كتبا كثيرة، وتفهم أننا عندما نحب لا يمكننا أن نعيش من دون حب.

كـــدت أصرخ "وحبـــي أنا ماذا تفعلين به؟ لكنني بقيت صامتاً "ذلـــك الـــصمت الجبان، المخيف، والمؤلم" وأرتعش من الداخل فيما واصلت هي حديثها:

- لقـــد قـــرر خطـــبتي لكنه خائف من مواجهة أخي، أرجوك ساعدني، أنت من يستطيع حل المشكلة بالتأكيد. أنت الوحيد.

رغـــم تزعزعي حينها إلا أنني تماسكت، أحسست بالدنيا كئيبة، وبالعـــالم مظلم، وقلت بصوت ضعيف، يكاد يخلو من أي شجاعة، أو حماس:

- نعم سأساعدك.

عانقتني بحرارة، شعرت بكل جسدي حينها يتقطر بالدم، ويغرق في لزوجة عرق بارد.

تـــركتها مطمئـــنا إياهـــا أنني سأفعل كل ما من شأنه إسعادها، وعدت منتكس الرأس، مهزوز القلب، ضعيفًا لأقصى حد.

* * *

حيـــنها لا أخفي بأنني فكرت كثيرا في مسألة القدر، في الصدفة، في الحـــياة، وفي اللعنة أيضًا، وتساءلت كعادتي، وأنا لا أعرف إلى أين أمد بصري، وفي أي طريق أتبصر معناي الذي لم يكن حتى ذلك الحين ليرمز لشيء محدد. هل هو سوء طالعي؟ قدري السيء؟ معناي الغامض الذي لم أستطع الامساك به؟ هل وهل؟

فكـــرت في الـــدين، لم تكن لي أي علاقة بذلك، أمي فقط من كانـــت تصلي في البيت، وتقرأ القرآن، وكنت أظن أن ذلك يأتي مع السن، مع الشيخوخة عندما يكبر الواحد منا، يشارف على نهاية العمر لا بد أن يختار إما أن يعزي نفسه بوجود عالم آخر ينتظرنا، أو يتكيف فقـــط مع فكرة أن ما عاشه هو الحياة الوحيدة، والتي عليه أن يفارقها من دون أي سؤال..

كـــل شيء خطر ببالي حينها، الأسئلة، الأفكار، وطعنات الغدر الآثمـــة **"كـــم أبالغ في وصف ذلك الإحساس بأنها لم تحبني أبدا تلك الـــرانية التي اشتهيتها طفلا ثم مراهقًا ثم رجلاً، وأنه ربما لن يقدر لها أن تحبني"** لكن دون أن أصل لشيء، لم أفهم لغز اللعنة؟ وهل هي لعنة حقيقـــية؟ أم أنـــا مـــن يتخيلها بهذا الشكل، وأخلق بذلك عداوة مع الآخرين، وعقدة مع نفسي.

كـــان لا بـــد مع ذلك أن أصل لنتيجة، أن أحدد موقفاً، إما أن أســـاعد رانية، أو أقف كما فعلت في المرة السابقة ضد حبها حتى أثأر من عجزها عن حبـــي، لأثأر لكرامتي، أو لذلك الشيء الذي تمدره في لم تكن تعلم كم كنت بحاجة إليها في تلك الفترة بالذات، فترة بين أن اسقط نهائيًا، أو أن أبقى أقاوم بروحي حتى الرمق الأخير..

بقـــيت أفكر، ثم وبشكل غريب رحت أفتش عن عشيقها، أبحث عنه، أتجسس عليها لأراها معه، لأشاهد خيانتها العلنية لي كما لو أنني كـــنت بحاجـــة لمزيد من التعذيب النفسي، مزيد من الإحساس بالألم، بقيت واقفا قرب من المحل من التاسعة صباحا حتى وقت الغداء، حينها شاهدت رانية تخرج، وتتوقف للحظات وهي تبحث عن شخص ما، لا بـــد أنـــه ذلك العشيق الكلب الذي أخذها مني، كان رجلاً في الثانية والـــثلاثين على ما أظن، اقترب منها، وسلّم عليها، ووضع يده بيدها

وسارا معاً، تكهربت مشاعري بحدة، وسرت خلفهما كالذليل، متسائلا في كل خطوة ماذا أفعل، لماذا أتبعهما، ما الهدف من وراء ملاحقة امرأة تحب شخصاً آخر؟ بلاحواب سرت خلفهما حيث رأيتهما يلحان شارع ديدوش مراد حتى وصلا لساحة أودان ثم عبرا النفق الجامعي حتى وصلا لشارع باستور، بقيت أسير من بعيد لا ألوي على شيء، هل كان في ذهني أن أفضحهما؟ أن أشي مرة أخرى لأحبيها كريم بمكان حريتهما الكراء؟ أم فقط لأزيد من غليان مشاعري الآثمة نحوهما، وصلا لعمارة تقابل قصر الحكومة، رأيتهما يفترقان لبعض الدقائق حيث سبقها هو في الدخول لتلحق به هي بعد ذلك.

بقيت واقفا بقرب باب العمارة لا ألوي على شيء، أفكار شيطانية تخطر على بالي، كأنني حيوان مجروح، مُهان في صميم كبريائه، في ذروة نرجسيته، في صلب أعماقه التي لم يعد هناك ما يسترها في تلك اللحظة، لم أكن قادرا مع ذلك على التفكير، ما معنى أن تفكر في شيء كهذا؟ كان عليّ الانسحاب مطأطئ الرأس، والصمت، لا شيء غير الصمت، محاولة النسيان، وكفى، عدم التذكر، لأن كل تلك الذكريات لا تعني إلا الجُرح، إلا المزيد من تفحر ذلك القيح المسموم، والموت البطيء الذي لا يحضر دفعة واحدة، ولا يحدث بسرعة البرق، كما نشتهيه ونريده، كما هو الموت الرائع لإنسان لم يعد هناك ما يبقيه على قيد الحياة، ما ينجيه من شرر هذا العالم، وبؤس هذا الوجود.

تخيلت أنني سأذهب إلى أقصى حد في شروري، لكن عندما قابلت أحاها كريم لم أقل له أي شيء، لقد بقي ينظر إليّ بمهابة، كما تصورته تماماً، حيانا أمام من يراهم يمثلون سلطة ما، كنت أعرف هذا منذ صغري، كان مذمومًا من كل أطفال ومراهقي الحيّ، متعتا وحيارا

www.mlazna.com-رياح الشرق

عـــندما يقوى على إيذاء من يراهم أضعف منه، أما أنا فلم يكن ليفعل أمامـــي أي شيء، كان يخضع لي، أو أحس أن لي كلمة عليه، أقول له افعـــل هذا فيفعل، وكنتُ أعرف السبب، لم يكن يخشاني أنا بالتأكيد، بـــل يخشى أبـــي الذي كان يدير السجن، وماذا يخيف شخصا حقيرا وبائـــسا مـــثله غير السجن، غير ذلك الشعور أنه لا يملك قدرة على المراوغة أمام قوة أكبر منه.

رأيـــته يجلـــس في مقهـــى الفريق بحي بلوزداد، أعرف أنه مقهاه المفضل منذ تلك السنوات الخاليات التي لم يعد لها معنى، كان قد تغير، هـــزل جسمه، صار وجهه مليئا بالجروح، كم قضى في السجن؟ سبع ســـنوات أو أكثر، لا أدري كل تلك السنين لابد أنها زادت من حمقه وبرودة روحه، حطمته وجعلته بالتأكيد أكثر وحشية من ذي قبل، لقد حـــدثني أخي الكبير عنه، وقال إنه ساعده بعض الشيء، لكن السجن هـــو السجن كما أضاف، السجن هو أن تعيش بين الحياة والموت في كل ثانية من عمرك.

رآني كـــريم عندما رفع رأسه ليتطلع للخارج، حاول أن يقوم من مقعـــده ليصافحني، فرجوته البقاء في مكانه، سألته عن أحواله فاشتكى لي الوضـــع بأكمله، لقد تغير بالتأكيد، لقد تحدث كحكيم جرب محنة الـــنهاية وعاد من عالم آخر ليفهم جوهر الحياة بلا فلسفة ولا قراءات، تحـــدث طويلا على أن السنوات السبع كانت كافية لإنهاكه تماماً، وأنه تعيس جدًا، وأنه تافه جدًا، كان يجلد نفسه من دون إحساس بالمبالاة..

ماذا حدث هناك؟ في تلك الظلمة القاتمة حتى يتغير، أو يشعر بأنه كان في طريق مريب ومظلم، وأنه بعد هذه السنوات لابد له من شيء جديـــد، شيء آخر يتمكن عبره من النجاة بروحه إلى حيث تطمئن، ترتاح، تشعر بذلك اليقين الذي لم يلقه من قبل..

قال لي سأحكي لك القصة، وسردها عليّ:

"لا أدري مـــن أيـــن ابدأ لك، أعرف فقط، أن ذلك كله ارتبط بروحي التافهة، وعقلي الصغير، لولا ذلك لماذا ضربت رجلا حد الموت لأنـــه تحرش بأختي، أنا بدوري كنت أعاكس النساء من كل الأعمار فلمـــاذا أغضب عندما أشاهد غيري يفعل ذلك، لماذا ثرت؟ هل لأنني كـــنت أرى نفسي الرجل الكامل الذي لا يحق لأخته أن تفعل إلا ما يخـــدم رجولته، رجولتي التي كادت تضيع مني في أول ليلة أقضيها في السجن..

توقـــف عـــن الكـــلام لهنيهة، طفرت دمعة من عينيه ثم واصل يتحدث:

"معـــذرة، كان الأمر صعبا، لولا ذلك الرجل الشهم الذي كان يـــناديه الجميع بالشيخ أسامة لحدث ذلك الشيء الذي لا تحمد عقباه، ســـترني الله من تلك الوجوه القبيحة والقلوب السيئة، لقد تدخل رجل لا أعرف من أين خرج، وأنقذني من تلك الوصمة، يا للعار، الحمد لله، الحمد لله..

(راح يكررها عدة مرات، وعيناه تدمعان)

لم أعـــرف بم أواسيه، ولكن شعرت أن كريم صار فجأة إنسانا آخر، قلبه ضعف، وروحه تقشرت، ولم يعد كما ظنت أخته رانية قبيح الخُلـــق والخَلق، رجل لا تعني له العواطف شيئا، والمرأة حشرة يسحقها من هو أقوى منها..

كـــان يتكلم بضعف، وكانت كلماته تخرج من فمه بصعوبة، ينطقها كمن يخرج جرحا تعمق في الصدر، وتجذر في الروح ولم يبرأ مـــنه بعـــد، رغم أنني شعرت بأنه كان سيحدثني حينها بأمر أهم وأجل..

أضاف فجأة، وأنا أحاول بيني وبين نفسي تبين تلك التغيرات التي طرأت على طبيعة رؤيته للحياة:

- الحمد لله أولا وآخرا، لقد بعث لي ذلك الشخص، أقصد الشيخ أسامة، واستطاع أن يهديني للطريق المستقيم.. كان الشيخ أسامة رجلا في الخمسين مهاب الجانب يخشاه كل من كان في الزنزانة، يتحدث بلغة عربية عتيقة لم نكن نفهمها كثيرا لكن عندما يقرأ القرآن كانت قلوبنا تخشع وعيوننا تدمع، وأرواحنا ترتفع.. لم يحدث ذلك بسرعة طبعًا، لم أشعر بتلك الأشياء في حينها، لقد أخذ الأمر وقتًا من المكابدة والامتحان والصبر حتى تيقظ بداخلي شخص نيّر باركه الشيخ وأصبحت رفيقه في تلك الظلمة العاتية، نديمه، وصديقه، وأخاه في الله.. كنا مجموعةً في الحقيقة، كل شهر ينظم إلينا شباب ورجال جُدد، وأصبحنا بذلك قوة متينة ضد الشر، لم يكن الشيخ يطلب منا تغيير الأوضاع حينها، ولكن كان يحثنا على تقوية العقيدة، والإيمان بأن كل شيء بيد الله، وليس بأيدينا، وإن الله هو الهادي الحقيقي، وعندما تأتي ساعة الحقيقة، وبأمرنا بالتغيير والصدح بالحق نكون بعد تطهر قلوبنا من أدران الدنيا ووسخها مستعدين للتضحية.. صدقني لم أكن أفهم هذا الكلام في البداية، كانت حماية الشيخ أسامة لي هي المهمة، أنت تعرف أنه يوجد في السجن وحوش، وقتلة، ومرضى، وظلم، ومعارك طاحنة، وعذاب لا يوصف، كنت أتبعه تقية لنفسي من عنف الآخرين، وظلمهم لي، ثم صار لكلامه تأثير ينفذ، ولبلاغته سحر لا ينضب..

لقد شكرت الله العلي العظيم أن بعثه في طريقي، بل تصور، شكرت الله أن أدخلني السجن لرؤيته والتبرك به، وملازمته، هل تظنني كنت سأتغير لو لم يحدث هذا اللقاء؟ ولو لم يخترني ليدافع عني لقد كان بجانبي في تلك الزنزانة العفنة التي كان بها عشرة أشخاص يتربصون بي كالفريسة السهلة..

لا أخفيك، كل تلك الشجاعة التي كنت أتباهى بها في الحي، كل تلك الرجولة المزيفة سقطت فجأة، بمجرد أن اقترب مني شخص ووضع شفرة موس حلاقة على رقبتي، وطلب مني أن أعطيه كل ما عندي من مدخرات قليلة... لقد أنقذني الشيخ أسامة، لقد أنقذ روحي من الهلاك.

ثم راح يردد كلمات الشكر بطريقته:

أشكر الله العلي العظيم على ذلك

أشكر الله القادر على كل شيء

أشكر الله الهادي المنير

أشكر الله العظيم.. العظيم..

ظننته، وهو يشكر بتلك الطريقة المتمايلة الرأس كأنه يهذي، أو يجذب، وأنه سيغمى عليه بعد حين...

لكنه توقف، ونظر إليّ بعمق وقالي مبتسماً:

لقد عذبني السجن كثيرا لكن بفضل الله العلي العظيم الذي، بعث في طريقي ذلك الرجل فأنقذني من تلك الظلمة لنور الحقيقة، وفتح عينيّ على طريق الهداية، تعلمت بفضله ما تعلمت من ذكر حكيم وأشعر بأنني رغم الذي عانيته خرجت من السجن رجلا صافيًا كما يخرج الرضيع من بطن أمه أول مرة، وأنني بعدما خرجت ازداد خوفي، وقلقي، وتألمي من أن امتحان الخارج لهو أقسى عليّ من امتحان الداخل، والدنيا لعب ولهو، وسمسرة وكفر، ولا يمكنني أن أعيش فيها

www.mlazna.com-رياح الشرق

كما كنت من قبل لاهيا، مذنبا، وغارقا في سطحيات الحياة التي تنسينا الأهم دائما..

حينما توقف عن الكلام، وأغمض عينيه، وراح يستحضر بشفتيه كلمات من القرآن الكريم عرفت أن كريم لم يعد هو كريم الذي عرفته سابقا، وعرفه حي بلوزداد في سنوات مضت، ولكن بقدر ما فرحت لتحوله من منحل لمتطهر جديد لا أدري لماذا شعرت بقلق عليه، بخوف من صورته الجديدة، وتساءلت بداخلي: هل يتغير الناس حقاً؟ أم أنهم سينقلون العنف الذي كان متوجها نحو الخارج إلى عنف جديد لايعلمون حتى هم ضد من سيكون؟

تركته على تلك الحالة بين صمت وخشوع، وخرجت من المقهى دون أن أحدثه في أمر أخته رانية وخطيبها الذي سيأخذها مني عنوة وفي وضح النهار.

من كان أبي؟

لم يكن عندي أدنى شك في أنني لم أكن أرغب في الجواب على هذا السؤال؟ ولكن كنت في نفس الوقت مدفوعا لمعرفة أي شيء عن والدي، أي شيء يمكنه أن يجعلني أدرك خبايا ما لم يقله لي، وأسرار حياته التي كنت أشعر أن لها تاثيرا سريا على حياتي، وانعكاسات مؤلمة على حاضري.

رحت أسترجع ذكرياتي معه، كم كانت قليلة في الحقيقة، وصورته الباقية في ذهني، وجهه أسمر السحنة، قامته الطويلة، أنفه الذي يستطيع أن يقتفي أثر أي رائحة، نظرته الحادة، عيناه المدورتان كحبتي زيتون سوداوين، كان يخيّل إلي أنهما تحملان ذلك السر الغامض للرجال المبهمين، الرجال الذين تصنعهم ظروف معينة، ويقعون دائما فريسة قدرهم اللعين..

تذكرت، أو حاولت التذكر لتسطع الحقيقة في وجهي كالشمس: لا أعـــرف أي شـــيء عن أبـــي، حكاياته الحقيقية دفنها في جبة قلبه بالتأكـــيد، وودعها هناك، ثم رحلت معه. رحلت بحيث لا يمكنني الآن رؤيـــتها بالـــصورة التي أريد، بالشكل الذي أرغب، أعيشها فقط من الداخل كلعنة قديمة ستطاردني للأبد.

لا أعرف أبـــي، ولماذا أربط حياتي بحياته، وجودي بوجوده، أم هـــو الذي فعل ذلك؟ حتى بعد موته لا يزال يطاردني، يتبع خطواتي، ويغمـــم مستقبلي؟ بقدره الملتبس بقدري، كما لو أن حياتنا هي نتاج ماضينا أكثر مما هي صورة لأشواقنا الآتية، وأحلامنا المستقبلية..

كان تفكيري في أبـــي يعود من جديد، فأسأل أخي الكبير عنه، أســـأله، وهو لا يجيب كأنه أبـــي الآخر، الصامت والكتوم، لم يكن أخـــي يملك كل المعلومات، بالتأكيد لم يكن يعرف كل شيء، صحيح أنـــه كـــان الأقرب إليه مني، كان ظله الذي يتبعه في البيت، وخارج البـــيت، وابـــنه المطيع، وهو من يفضله علينا جميعًا، لأنه يُظهر أمامه خشوعًا زائدا عن اللزوم، وفي الخارج غطرسة لا مثيل لها، كانت تلك هـــي صـــورة والدي القوي والمتكبر، لكن أخي أحمد كان فيه لطف وليونة، كان حنونا إلى حد ما، أكثر حنانا من أبـــي، لم أكن ألجأ إليه في شـــيء إلا وساعدني فيه، كان يتمناني متعلمًا، أبحر في طريق المعرفة، ولا ألـــتفت للوراء، أرادني عكسه تمامًا، أن لا أكون شبيهه ولا شبيه والدي، خيبت أمله حين تركت الدراسة أول الأمر، دون أن يمنعه ذلك من أن يبقي ودودًا معي، وعطوفا مع أفراد أسرتي جميعهم خاصة عندما استخلف والدي في قيادة سفينة البيت، حيث بقي يعطيني النقود عندما أحـــتاج، ويغفر لي زلاتي عندما أرتكبها بحمق، وبشكل خاص عندما تسبب له حرجا في الحي الذي نسكنه، كان يكتفي بالعتاب المازح:

- أنت مدلل ولا تريد أن تكبر.
- لماذا تقول لي مثل هذا الكلام؟
- مات أبونا ولم يبق لدينا وقت للحماقات.

لم يكن يعرف درجة تأثري بموت والدي، تأثر لم أستطع إظهاره لأحد، بل كدت أخفي ذلك الأثر حتى على نفسي، وكانت تلك الشيطانات التي أرتكبها مع سكان الحي فقط لتصريف ذلك الشعور بالفراغ والوحدة، الخوف من الآتي، وأشياء من هذا القبيل.

لقد كبر هو، وتحمل المسؤولية. النظام أعطاه فرصة ليخلف والدي في المنصب نفسه، كأن مديرية السجن صارت وراثة، نرثها ونتحمل أعباءها، ونواصل المهمة، وبينما رفضت أنا أن أكون جزءًا منها، رفضت أن أتحول إلى عبد لمنظومة قهرية ليس لها من هدف إلا حجز حرية الناس، وافق أخي ليس بطيبة خاطر ولكن لأنه لم يكن من ذلك بد، كان ذلك قراره لتستمر حياتنا بالصورة التي تدفع عنا السوء لأطول وقت ممكن.

يسألني أخي:

- ما مشكلتك مع السجن؟

أجيبه بسذاجة:

- أكره الأقفاص المغلقة، وأحب الحرية

يجيبني بحماس وإيمان كبير:

- نحن نحجز فيها المجرمين، أعداء المجتمع والشعب.

بينما أرد عليه بسخرية:

- أعداء من؟

يواصل باستماتة الدفاع عن موقفه:

- نعم أعداء الشعب والمجتمع، أعرف لما تلمح، ولكن أبانا كان يقوم بواجبه وكفى..

- كم أود أن أعرف من كان أبـــي حقاً؟

يتباطؤ أخي في الإجابة ثم يقول:

- أنت اهتم بمستقبلك، وأنا أتكفل بماضي والدنا..

اهتم إخوتي وأخواتي كلهم بمستقبلهم إلا أنا بقيت أدور في تلك الحلقة المدمرة، خطوة نحو الأمام تليها عشرات الخطوات للوراء، كنت غـــير سعيد بكل شيء، وأشعر بأنني مُدان ومتهم، تعبٌ من الحياة التي وجدت فيها، ومن الحي الذي أعيش فيه، ومن البلد بأكمله..

* * *

كـــنت ألجـــا في تلـــك اللحظات التي تضيق فيها فسحة الرؤية، ويعجـــز البصر عن النظر بعين مدققة، وتفقد البصيرة وضوح حدسها الذي صار عندي بمثابة أبـــي الروحي، عمي العربـــي الذي عاد لمهنة الـــصيدلة بعد أن أعيد له دكانه فطلق تصليح الأحذية بلا رجعة، زرته في بيته ببئر مراد رايس، فاستقبلني بسعادة، وحفاوة، كان قد كبر، ولم يعـــد يتحرك بخفة كما في السابق، هناك أحده يتحرك في أفق آخر غير الأفق الذي كنت أحتضر فيه.

- كيف الأحوال؟

- بخير ولكن كعادتي مصدع الروح، وقلبـــي هائم.

- دواء التيه الحب.

يطلـــق ضـــحكته الرقيقة، وهو يتحدث عن الحب، أما أنا فأبتلع حسرتي تلك وأصمت، أشعر بالمغص الداخلي يتحرك، ها هو يضع يده على جرحي الغائر. أترى كل معاناتي ليست إلا قصيدة حبـــي الفاشلة

www.mlazna.com-رياح الشرق

لرانية، وعذابات الرغبة المكنونة في القبض عليها، مسكها بقوة، التدثر بها، الاندثار بين نهديها الصغيرين، والنوم العميق على صدرها. أهذا كل شيء. كما لو أن خلاصة هذا الجري هو أننا لا نملك أي سلطة أمام الحب، عندما يهجم على قلوبنا، ويخبش أرواحنا، لا نستطيع تغيير مسارنا حينها، التهلكة هي النتيجة الحتمية، وكلما اندفعت في مجاهيل ذلك الحب العاصف لتلك الرانية كلما شعرت أن نهايتي ستكون على يدها.

طبعا لم أكن أنتظر من عمي العربي أن يجد لي طريق الخلاص في عشقي الزائد لتلك المرأة المدهشة واللعينة، بل كنت أدرك أنه لن يفهم هذا الحديث مني، ولن يقدر متاعبي الوجدانية تلك، وأنا لم أزره لأنفث أشجاني العاطفية أمامه. لهذا كنت أحكي معه في أمور أخرى، وأنا أمارس الهرب نحو قضايا تبدو له بالتأكيد أهم من عشق هائم لا يخمد أبدًا، ومن جرح كهذا الجرح.

أقول له:

- البلد تغير بسرعة.

ها هو موضوع حديثه المفضل، مسكون بواقعه حد الهوس، كنت أخاف عليه من ذلك، من هذه التضحية الكبيرة التي قدمها لصالح ما يؤمن به، ولصالح بلده الجحود الذي لن يعطي له حتى الحق في الصراخ، وفي قول الحقيقة وفي رد الاعتبار لسنوات الألم والجحود. يقول لي:

- نعم تغير، الأمور تنتقل من سيء لأسوأ، لهذا أطلب منك العناية بنفسك..

ليضيف وقد أخرج سيجارًا من صندوق خشبي مزخرف برسومات الطاسيلي:

- لمـــاذا لم تكمـــل الدراســـة؟ بالنسبة لي التعليم هو أحسن الحلـــول، لـــن أنصحك بالنضال هذه المرة، لا يبدو أنك مخلوق لذلك، أنصحك فقط بأن تعرف أين تضع رحليك، لا تترك السواد يزحف نحو قلبك، القلب هو مكان المقاومة الحقيقـــية، ذلك أن النفس ضعيفة، ويمكنها أن تسقط في أي لحظة..

أشعل سيجاره وعاد يتكلم بحددا:

- أقول لك بصراحة، أنا تعبت حتى من الكلام، لا أريد أن أبدو مثاليا أمامك، حياتي ليست نقية تماما كما قد تتصورها لكني دافعت عن قناعاتي بكل ما أملك من قوة، ودفعت ثمنها غالياً، والآن أرغب في شيء آخر، لم ينفتح المجال بعد لنقول ما نريد قوله، ولكن قد يأتي هذا الوقت بعد رحيلي، وحينما يأتي على كـــل واحـــد أن يـــتحمل مسؤوليته في قول الحقيقة كاملة، والتعـــبير عـــن رأيـــه بصراحة مطلقة.. ما يهلكنا اليوم هو الـــصمت، الـــنفاق، الكذب، تقرأ جرائدهم فتضحك، تمزق رأسك، وتقول يا للفظاعة ما هذا البلد الذي يسجن نفسه في الأكاذيـــب، لن يقدر الناس على التحمل، سيتحملون لأنهم تحملوا دائما، لكن للتحمل وقت، ستنفجر في يوم من الأيام، أنـــا أحـــس بهذا. لنقل مجرد شعور فقط، غريب ربما، ولكن الناس ستنفجر..

عفـــوا تكلمـــت كثيرا دون أن أدعوك لشرب شيء، للأسف لم أتـــزوج، وليس عندي من يحضر القهوة ولكن لك سأحضر شيئا آخر، هل تشرب؟

لم أفهم سؤاله، قلت "كوب ماء" فابتسم، ثم عاد يشرح:

- أقـصد هل تشرب بيرة، أو ويسكي هناك شخص يحضر لي زجاجة جيمي والكر كلما سافر إلى فرنسا.

لم نـتحدث عـن الـشرب، أعرف هذا، ولكن الشرب جعلني في مأمن من الانفجار الداخلي، على الأقل الشرب يريح أعصابـي..

فـضلت أن اشـرب الماء، وإن كنت بداخلي رغبت في تجريب شـرب البيرة حينها، كلامه عن الشراب أمتعني فجأة، فتح رأسي على حل غامض لهمومي..

خـرج من غرفة الصالون متوجها للمطبخ فيما بقيت أتساءل إن كـنت أقدر على الحديث معه بصراحة عن كل ما يؤلمني بعمق، عما يحيط بـي من حوادث، وفيما أنا مقبل عليه. ولماذا لا أفتح له قلبـي كما يفتح لي هو قلبه بصدق وشفافية؟ لماذا لا أتحدث له عن إحساسي بالعجـز وأنني كئيب في أعماقي، وأن الحظ لا يساعدني لكي أنال ما أريد، وأنني نافر من عائلتي، متقلب في رؤيتي، مرة أرغب أن أكون مثل باقي الناس، ومرات لا أعرف لماذا لا أشعر بأن هذا هو طريقي، وإنني في لـب أعماقـي أحسني قريبا لمسار أبـي، وأن ما أعيشه ليس إلا تكـرارا مروعاً لحياته السابقة وأنني خائف مما قد أفعله لاحقا ليس ضد نفسي، ولكن ضد غيري كذلك.

لم أفـتح قلبـي له، لم تكن عندي الشجاعة الكافية، كنت فقط أشـعر أن سفينتي الروحية تغوص في وحل التلاشي الكبير، وأنني مقبل بـشكل مأساوي على الانحدار نحو الحياة الأخرى، على الوجه الأكثر بؤسـا حيـنها، ولم يكن بيدي أي وسيلة لإنقاذ روحي التي توعدني بهلاكها قدري الشخصي.

عـندما عاد بزجاجة "الجيمي والكر" قررت الشرب معه، قلت لنفـسي كأس في خاطر التعاسة، والبدايات الغامضة للتشوه الإنساني،

www.mlazna.com-رياح الشرق

فإذا بكأس تليها كأس أخرى، وبينما كان عمي العربـــي يسرد وقائع سنوات الجمر السبعيني من جديد كنت أنا أرتحل في سماء أخرى، أرتفع لأعلى، وعيناي تدمعان وقلبـــي يخفق.

* * *

لا أذكر كيف قضيت ليلتي تلك، ولكن في الصباح، وأنا أستيقظ كـــان رأســـي يوجعني قليلا، وأحسست كما لو أن ذهني توقف عن الـــتفكير لبعض الوقت، وروحي طليقة في عالم آخر، كان هناك صفاء داخلي عميق، عندما دخلت أمي الغرفة أحضرت لي القهوة، وراحت تقول لي أشياء عن أمس:

"انتظـــرتك طويلا لكنك لم تعد للبيت، ثم غفت عيناي، وعندما فتحـــتهما وجـــدتك مستلقيا فوق سرير نومك، هل كنت مريضا يا ابني؟"

نفـــيت ذلك، أخبرتها بأنني عملت كثيرا في مكان ما، فتركت لي القهوة على جانب، وعندما همت بالخروج تذكرت أمي شيئا:

"آه نسيت، جاءت رانية منذ ساعتين وسألت عنك"

استغربت وصحت فرحًا وفزعا في نفس الوقت:

"رانية جاءت إلى هنا؟"

ردت أمي بسرعة:

"نعم.. لكنني أخبرتها بأنك نائم فلم ترغب في إزعاجك، لم يكن يظهـــر علـــيها الحـــزن كما في الزيارة السابقة يبدو أنها ارتاحت من مشاكلها..".

ابتلعت القهوة على عجل، قبلت رأس أمي، ولبست ثيابـــي على الفـــور، وخـــرجت من البيت، سرت إلى غاية ساحة الأبيار، لم يكن

الطريق مزدحما كالعادة لكنني فضلت المشي مع ذلك، من حي شوفالييه تبدو الطريق مفتوحة نحو الأمام، وبعدها أخذت سيارة أجرة إلى شارع ديـدوش مـراد، هـناك توقفت أمام الدكان الذي تعمل فيه، رأتني فابتسمت وتقدمت نحوي، صافحتني بحرارة، وقالت إنها في إجازة لكن لا أحـد يعلم في البيت بذلك.. وطلبت مني أن نشرب قهوة في مقهى "رونيسونس" المقابل حيث جلسنا قبالة بعض..

كنت بلا إرادة، أرتجف من الداخل، وكنت أشعر أن حبـي لها قد وصل لذروته، أو للمكان الذي لا يحمد عقباه، وأنني لم أكن أعرف ماذا أفعل أمام ما ورطتني فيه، أم تراني أنا الذي ورطت نفسي فيه دون إرادة. لا يفهم الإنسان دائما لماذا يقع في أشياء من هذا القبيل حتى أنه ليستطع أن يضع رقبته فوق سكة الحديد ويموت من أجل من يحب.

كـنت أشعر أن رانية أخذت مني كل قوتي الداخلية، والمؤلم في كـل ذلـك أنني كنت أشعر بعجز عن الفهم. كان الحب أقوى مني بالتأكـيد، ولكـن كنت عاجزا عن توضيحه لكي أبرأ منه، فلم يكن بمقدوري تحليله بالصورة التي درجت بها عليها في تحليل الأشياء الأخرى التي تعنيني مباشرة أو تعني غيري..

رغـم مرحها وارتياحها الذي سيطر على سلوكها حين جالستها إلا أنني شعرت أنها كانت قلقة من شيء ما كانت عاجزة عن الإفصاح عنه، فسألتها مباشرة:

- ماذا هناك؟

فسألتني بدورها بطريقة مباشرة، وهي تدخل في صميم الحديث:

- هل قابلت أخي؟

ثم أجابت بنفسها قبل أن أنبس بحرف:

- نعم بالتأكيد، لقد أخبرني بذلك.

- أخوك تغير كثيرا، وأظن أنه لن يقف في طريقك هذه المرة.

عادت للصمت، والشرود قبل أن تجيبني:

- هـذا مـا ظننته أول الأمر، ما إن تجاوز عتبة البيت حتى قبلنا جميعُـنا، فردًا فردًا، وطلب منا الاعتذار، وألقى خطبة طويلة مليـئة بالـندم والـتوبة، حتى أن أمي عندما رأته يتكلم بهذا الشكل زغردت وولولت فرحا لما بدر منه، وبدوري امتلأت فرحا وسرورا..

- لقد تحدثت معه، ويبدو أن السجن علمه الكثير، وغيّره تماماً.

- كـان ذلـك في البداية فقط، يومان بعد هذا جاءني للغرفة، وطلـب محادثتي، فقبلت، تصور طلب مني شيئا واحداً فقط كي يتركني أعمل.

سألتها بفضول، واستغراب:

- ما هو؟

فردت مستاءة، وبصوت ضعيف للغاية:

- أن أرتدي الحجاب..

ثم واصلت تتكلم بسرعة:

- حاولـت أن أقترب من شرطه هذا، لكن ما إن رفعت رأسي نحـوه، وأنا أحاول بشجاعة التركيز على عينيه حتى شعرت بالخـوف يتملكني، لقد وجدت فيهما شرارة القسوة القديمة، وهـذا ما جعلني أصمت، أبلع كل شيء في داخلي وأصمت، أتجرع مرارة الصمت العاتية. ليغتنم فرصة صمتي ذاك، ويلقى عليّ موعظة طويلة، عريضة جعلتني أزداد خوفًا منه.. لم أفهم سـر تصرفه، أخبرته بأنني سأفكر في الأمر فرد عليّ بسرعة: نعم فكري، ولكن هذا هو شرطي الأول والأخير.

www.mlazna.com-رياح الشرق

تحدثت مع أمي في موضوع الخطوبة، فقالت لي بأنها كلمته، وإنه لا يمانع شرط أن يكون خطيبي رجلاً متديناً وملتزماً، وإنه لن يقبل بتزويجي من كافر مدنس..

لا أخفيك لقد ازدادت حيرتي، وقلقي، وأنا أسمعه يعود لتعنته القديم حتى لو كان هذه المرة في ثوب شخص جديد عليّ..

ثم صمتت لأبقى أنظر إليها، في وجهها خاصة، وعلامات الاضطراب والحيرة تصطبغ عليه، وتنفذ لأعماق عينيها السوداوين.. لقد رأيتها في قلب ذلك الاضطراب والحيرة أكثر جمالا مما تصورت، ممتلئة بتلك الأنوثة المتوهجة، شعرت بنني ضعيف أمامها، يا للتعاسة، يا للحمق..

عرفت أنها فرصتي لأهرب بجلدي من تحايلها الماكر نحوي، من رغبتها في أن أكون مخلصها عندما تحتاجني، وعدوها عندما أرغب فيها وأحتاج إليها بدوري، وفرصتي لأقول لها رأيي في زواجها من ذلك الغبي الذي لم أكن قد رأيته إلا مرات قليلة، صبيا، عندما وشيت بها لأخيها الدنيء، كبيرا عندما تتبعت أثرها ككلب صيد يتقفى أثر مجرم فار من العدالة، ولا أعرف عنه أي شيء، ولا حتى كيف أحبته، كيف عشقته، وكيف تضحي بي من أجله لكنني امتنعت، كعادتي لم أجد لا الشجاعة، ولا الكلمات، وفي آخر لحظة قبل أن ينتهي بيننا الكلام سألتني متوترة:

- عفوا أحشرك في قصصي المأساوية، وأنسى أن أسألك عن أحوالك.

أجبت متهربا من سؤالها:

- أنا بخير، أعيش كما أحب أن أعيش..

- أمـــك أخبرتني بأنك رافض لفكرة الزواج، هل هذا معقول؟ أنت شاب متعلم ووسيم وكل امرأة تتمناك..

كدت أقول لها "كل امرأة تتمناني إلا أنت"، ولكنني لم أقل شيئا محـــدداً، بقيت منتكس الرأس، تذكرت أيام زمان، تلك التي لاتفارق ذهني أبدًا، وأنا مراهق يبحث عن خلاصه في كل مكان من هذه المدينة المزدحمة بالوحوش والألغام، مدينة لها ألف وجه، وألف باب، كل باب يـــدخلك لمتاهة حقيقية، مدينة حلم وخوف، التبست صورتها بالحب الغـــامض لرانية، وبذلك العجز الغريب عن تحققه. فكرت أن الأمور دائمًـــا تبدو من الظاهر غير متجانسة، وجد متنافرة، لكن من الداخل تنـــسج مـــع بعضها علاقات خفية، ومعقدة، شبكة واحدة، أي خيط يـــتقطع يـــؤدي بالضرورة لفساد تلك الشبكة المتشابكة، لقد كانت مدينتي كالمرأة التي أحببت وطلبت، رغم بؤسها المدقع وجمالها المتوحش بقيت تعج بالغرباء، نعيش داخلها بآلام الغرباء، وتصورت أن حبـــي الوحـــيد هـــو القادر على إنقاذي من كل هذا التيه الطويل والدوران الأعمـــى لكـــنني لم أجده إلا في صورة فقد ويأس، بقيت لوحته مثالية وغـــريبة، وتعيش في ذهني فقط، ولا أدري لماذا بقي الحب مرتبطا بهذه المـــرأة رانية مسعودي؟ هل لأنها لم تأخذني بالجدية التي أستحقها؟ هل لأنها رفضتني فأغرقني ذلك في عزلة رهيبة؟ أم أن الحب كما كان يقول صـــديقي عـــدنان "يصبح حبًا حقيقيًا عندما يستحيل تحققه". وها هو يستحيل أمام عينيّ دون أن أملك قدرة على فعل شيء واحد يمكنه أن يرجعني لسكة الطريق.

طمأنـــت رانـــيةوتعهدت لهـــا بأنني سأفعل كل شيء من أجل ســـعادتها، وأنـــني سأتكلم مع أخيها كريم مرة ثانية، رغم أنني كنت أعـــرف أنـــه أصبح خشن الرأس، ولن يأخذ برأيي بتاتاً، كنت أوهمها

فقط أنني شهم ونبيل، وأنها يمكن أن تتكل علي وقت الحاجة، وأن هذا سيسعدني بالتأكيد..

تـــركتها وانـــصرفت، خرجت إلى شارع ديدوش مراد ثانية، وبقـــيت أتأمـــل الوجـــوه التي تعبر أمامي، تتحرك يمنة ويسارا وهي تتـــصادم بنظـــراتها وبغرائمها كذلك، لقد كانت الوحوش الضارية تتعارك كالعادة على أبسط الأشياء من أجل أن تعيش، لكنها كانت تجهـــل بالتأكيد أن هناك قوى غامضة تتلاعب بمصيرها، قوى حقيقية تعـــيش في الظـــلام وهي من يقرر من سيعيش ومن سيموت، ومن سيصعد ومن سينـــزل، ومن سيبقى مكانه ثابتا لا يتحرك، ومن عليه أن يتزحزح للوراء.

كان مفتاح معرفة تلك القوى مرتبطا بسعيد بن عزوز.

* * *

بعـــد ذلـــك اللقـــاء لم أر رانية مدة شهر تقريبا، كما لم أحاول الاتصال بأخيها كريم، عدت لعملي بشركة طارق كادري، وانغمست في ذلـــك كلـــه بصمت، حيث كنت أرفض أن أتصل لأحد، كما لم أنتظـــر أن يتصل بـــي أي شخص، عدت للعمل والعزلة، كنت أدخل البـــيت وأرتمـــي فوق سرير نومي، وأخرج أي كتاب لقراءته ولم يعد يهمـــني أن أكـــون وفيًا لأي أحد، إلا لنفسي، كنت في الثلاثين من عمري، ولم تكن بحوزتي أحلام حقيقية، لقد ربطت وجودي بأمور لن تتحقق شعرت أخيرا أنه لا معنى لها، وبذكريات سوداء من الماضي، لم أحـــاول جرجرة تفكيري لما حدث سابقا، ولقصة أبـــي الذي بقيت علـــى الـــرغم من كل ما عرفته مجهولة، وسرية، فتركتها على حدة، تركت كل شيء، وأنا أصدح بداخل نفسي: حياتي أولى..

عندما التقيت مرة أخرى بسعيد بن عزوز كنت تحت تأثير شعور غريب بالحرج منه، فكرت فيما حكاه أخي عن فعلة والدي مع والده، وشعرت بالشفقة والتضامن، لم يخطر ببالي أن ذلك سيحدث لي، وأمام هذا الضابط المغرور والحاقد، لكن أنا من ذهب إلى مكتبه هذه المرة، أنا من طرق باب مكتبه ثم دخلت، فاجأته، وأنا أدخل، بقي كالصنم الرخامي الجامد ينظر إليّ، ونسي حتى كلمات التهذيب التي درج على استعمالها كلما رآني، مددت يدي له مصافحًا ومعتذرا:

- أعرف أنك مشغول ولكن أردت

استعاد حيويته فجأة وردّ مرحبا:

- لا أبدا، تفضل أهلا بك، المكتب مكتبك.

كم يحسن هذا الشخص النفاق، لماذا يمثل بهذا الشكل الوقح؟ لماذا لا يلكمني الآن وينتقم لوالده؟ لماذا لا يخرج سمومه دفعة واحدة؟ لماذا لا يقول لي بيني وبين عائلتك ثأر، ودم، وحرب لن تنتهي أبدا؟ لا لن يقول لي أي شيء، سيمثل دور صديق الطفولة ويلبس قناع أخلاق ابن الحي القديم، سيتكلم بلغة مهذبة وبمنطق فاضل، بل هو من سيعتذر لي، إن من يريد أن ينجح في هذا البلد لابد أن يتحلى بالقدرة على أن يكون له وجهان، وجه للآخرين، ووجه لنفسه، وأن لا يبالي بأي شيء إلا بما ينفع نفسه، تساءلت بداخلي: من يصنع هذا النوع من الناس؟ الحرمان، الفقر، تجارب الحياة المريرة، غياب الأب، نعم بالتأكيد، لقد مات والده منتحرا كما انتحر والدي، لكل أسبابه، ولكل منطقه في الدفاع عن نفسه وصون شرف روحه.

كنت غارقاً في ذلك كله، وإذا بصوته يخترق ذلك الضباب الذي حجبني عنه لثوان معدودات:

- مفاجأة سارة.

www.mlazna.com-رياح الشرق

- الحقيقة كنت مارًا من حي بلوزداد ففكرت أن أزورك.
- مـــرحبا بـــك في أي وقت، أنا سعيد أنك تذكرتني بعد سوء الفهم الذي وقع بيننا.
- لقـــد نـــسيته، وتأكد من أنني فكرت في المسألة جيدًا، ومن جهـــتي أعـــتذر لك، لم تكن مخطئا، لقد كنت أجهل القصة القديمة.. ولهذا..
- لا تواصل أرجوك، هذه غلطتي، لماذا أحملك مسؤولية شيء لم تقم به أنت..
- لا أعـــرف، لقـــد دافعت عن صورة والدي كأحمق، والآن نـــدمت، أريد أن نطوي صفحة الصراع القديم، وأن نبدأ من جديد.
- هذا هو المطلوب..

وعـــندما صار كل شيء واضحًا بيننا قررت الانصراف، غير أن سعيد أصر على استضافتي في مطعم سمك بأعالي حيدرة:

- سترى أن السمك هناك لذيذ جدا.

وافقت دون مناقشة المسألة.

* * *

عـــندما كنت طفلا كنت أحب زيارة حي "حيدرة"، كان حيًا نظيفاً جدا، وصامتاً كذلك، مختلفا عن الأحياء الشعبية التي كنا نسكن فـــيها، والـــتي كان أهم سماتها الضجيج والفوضى والازدحام، بنايات مكـــتظة بالـــسكان والعائلات المتوافدة من كل جهات البلاد، كنت أذهب مع أحد إخوتي الذي كان يدرس قريبا من ذلك الحي، لكن بعد سنوات لم أضع قدمي هناك، صار الأمر يثير في نفسي حزازات، كنت

أشـــعر بضيق لأنه يوجد أناس من بني جلدتنا يعيشون في رفاه كبير في هذا الحي، ونحن الأغلبية نختنق في بيوت تشبه العُلب المخصصة للكلاب الجـــربة، والغـــيران التي تأوي الفئران العفنة، كان الأمر يبدو لي غير طبيعي، ولا إنساني بالمرة، خاصة وأنه بعد الاستقلال لم يكن هناك غني واحـــد يمكنه أن يقول إنه يعيش حياة بذخ خير من الآخرين، اللهم إلا البشاغاوات والقياد الذين كانوا يعملون مع فرنسا والذين أغلبهم أممت ثـــرواتهم في عهد الزعيم بومدين، لكن رجال الثورة تحولوا بقدرة قادر إلى رجال الثروة لاحقا، وقسموا البلد لقسمين، قسم نافع يعيشون فيه، ويتبختـــرون في نعـــيمه، وقسم فاسد، تركوه ينتحر في فوضى أزماته اليومـــية، وينتحـــر غرقا في بؤسه الاجتماعي والمادي والأخلاقي على السواء.

دخلـــنا ساحة حيدرة بسيارة الشرطة، وتوقفنا قرب مطعم مختف عـــن الأنظـــار، وطلـــب مني سعيد أن لا أفاجأ بوجود عدد كبير من الـــرجال المهمين في الدولة، فابتسمت، لم يكن يهمني رؤيتهم بطبيعة الحـــال، لكـــن عند سعيد كان ذلك مهماً جداً، من يكون حاضرا في المطعم، من يراه ومن يصافحه، ومن يبتسم له، ومن يكفهر في وجهه.. الخ

كان المطعم كبيرًا، وعلى طراز حديث، لكن بلمسة عريقة تنتمي للعهـــد النابليوني أما اسم المطعم فهو "باريس الصغيرة" كل شيء فيه علـــى الطـــريقة الفرنـــسية، والجميع يتكلم اللغة الفرنسية من حارس الباركينغ إلى الخادم الذي استقبلنا كأننا ندخل إلى قصر الاليزيه. بدا لي الأمـــر سخيفًا لكن مهيبًا بعض الشيء، ولولا معرفة تحمس سعيد لكل مـــا في المطعم من أرستقراطية غريبة، وجنوح شكلي مفرط في التقليد لخـــرجت فـــورا، لقد لقي بعدها ترحيبًا من بعض الزبائن الذين كانوا

يجلسون في موائد متفرقة، ومنهم وزير الداخلية الذي تقدم منه سعيد وأعطاه التحية العسكرية فضحك الوزير وعلق:

- ليس هنا يا سعيد، تكفي مصافحتي فقط.

فصافحه بوقار مدهش، واستعراضية مثيرة كما صافح من معه بنفس التقدير والخضوع، وكانوا ثلاثة كهول في سن متقدمة، ولكن وجوههم محمرة وعيونهم تلمع كالماس، لم أجرأ على سؤاله من هم، حتى سمعت أحدهم وكان في عمر والدي لو بقي على قيد الحياة بوجه مدور وأنف طويل وسمنة عجيبة يسأل سعيد:

- أليس هذا الذي معك ابن السيد(..)

ونطق اسم أبي فتعجبت، كيف يعرفه؟ ومن يكون؟ وكيف عرف أنني ابنه؟

تقدمت بدوري من مائدتهم التي كانت مزدهرة بالأطباق الشهية، واللحوم من كل نوع، وصافحتهم جميعهم فقال لي الرجل:

- والدك كان شخصا وفيًا للغاية أتمنى أنك مثله، لقد خدم النظام بتفان كبير.

لم أستوعب إلى أي شيء يلمح هذا الكهل المخرف، لكن سعيد سارع للرد في مكاني:

- رضا شاوش شخص متعلم وذكي وهو يسير على خطى والده وستسمعون بما سينجزه هذه الأيام.

بداخلي تساءلت عما يتكلمون، ولكن بقيت ابتسم ببلاهة دون أن أظهر أي شيء، إنهم من صنف يصعب حتى التكهن بما يفعلونه في الواقع، ويبدو من خلال جلوسهم الإمبراطوري في هذا المطعم أنهم يشعرون بفكرة كونهم أسيادًا حقيقيين وكل شيء يسير بأيديهم، ولا شيء يغرب عنهم كما لا شيء كان يغرب في زمن سابق عن بريطانيا

العظمـــى، وأنهم بكلمة، أو إشارة واحدة يمكنهم أن يقتلوا أي شخص أو يرفعوه..

انحـــنى ســـعيد بـــن عزوز وهو يتمنى لهم صحة أكل جيدة بينما اكتفـــيت أنا بتلك الابتسامة المزيفة وسرنا لآخر المطعم في زاوية شبه معـــتمة، بعـــيدا عنهم بأكثر من عشرين متر، كما لو أن سعيد تعمد ذلـــك، وهـــو يبدي احتراما وتزلفا لم أر لهما مثيلا من قبل، وما إن جلسنا حتى قال فرحا:

- أنت محظوظ.
- لماذا؟
- لأنهم يعرفون والدك، وسيساعدونك حتماً.
- لم أطلب شيئا.
- ولمـــاذا تطلـــب، هذا قدرك يا صديقي أن يأتيك الحظ لبيتك دون أن تفعل شيئا.
- ولكنني لا أعرفهم.
- هم يعرفوك، وهذا هو المهم..
- مـــاذا تقول يا سعيد؟ ما فعله والدي من أجل النظام انتهى إلى مـــآس مـــتعددة، مأساة والدك، وعائلتك، مأساته هو شخـــصيا، لقـــد جـــن وانتحر بعدها، ماذا أفاده كل ذلك الوفاء؟
- يـــبدو أنـــك أحمق يا رضا، ولا تريد أن تفهم ما يحدث من حوالـــيك.. الأمور تغيرت، ماذا تريد أن تكون في هذا البلد سيدا أم عبدا؟

أجبت متشنجًا، وعلى الفور:

- لا هذا ولا ذاك.

www.mlazna.com-رياح الشرق

- طـبعًا سيدًا، حتى لو لم تقلها بلسانك، لأنك لو صرت عبدًا فسيسحقونك كالحشرة التافهة ويمضون إلى سبيلهم، فالحياة ظالمة، هذه هي طبيعتها، لا تأبه لنبل الناس وشرفهم، وعلو روحهم، بل لقوتهم أو لمالهم، وبدون قوة ولا مال نحن مجرد حشرات، ولكن أنظر.. الفرصة جاءتك لتخبرك أنك محظوظ جدا.

حتى تلك اللحظة لم أفهم تلميحات سعيد، وإلى أين يريد أن يأخذني بكلامه، وما معنى هذا الكلام، والإلحاح على أشياء لم تكن موضع حسابي حينها، فصمت وتركته يسرد عليّ الحقيقة، نعم استعمل كلمة الحقيقة لأنني سألته مباشرة:

- ماذا هناك؟

- سأتحدث معك بصراحة، وأعرف أنك تحب الذهاب مباشرة لصلب الموضوع، لا يهمني ما حدث لوالدي، لقد كان رجلا ضعيفاً، ولم يكن يعرف من أين تأكل الكتف رغم أنه كان في الصفوف الأمامية للثورة التحريرية، الناس كانت تحارب وتفكر في المستقبل وهو لم يهتم بأي شيء إلا باستقلال البلاد، وتحرر الشعب، وبدل أن يختار جبهة الأقوياء اختار أن يعارض بعد الاستقلال، لا أدري لماذا فكر بهذا الشكل، لكن النتيجة كما تعرفها سجن وتعذب من طرف والدك، أهين في شرفه وكرامته، لقد آلمني ما حدث له في حينها، ولكن بعد مرور السنوات فهمت من خلال حياته أن الضعيف لا يمكنه أن يعيش في هذه البلاد ومصيره هو دائما كمصير والدي، أنا أنصحك باغتنام الفرصة، يجب أن تنسى كل ما تعلمته، وقرأته وآمنت به، الرجال الذين قابلتهم منذ قليل هم مفتاح

خلاصـــك وخلاصي من سلسلة الحديد التي تربطنا بالبؤساء والتعساء في بلادنا..

ألقـــى كلامه مرتبًا وبطريقة هادئة، لا يشوبها أي قلق أو تذمر، كما لو أنه كان يحفظ خطبته عن ظهر قلب، سرعته في الحكي جعلتني أتـــراجع عـــن فكرة مناقشته، أو الاعتراض على ما يقول، غير أنني في جانـــب مني كنت أريد أن أقتنع بكل ما قاله، في داخلي كان قلبـــي يتحـــرك بهـــذا الاتجـــاه، والتـــساؤل عـــن العمـــل الذي يجب أن أقوم به لكي أصبح سيدًا مثلهم، وليس عبدًا مثلما هي حال الأغلبية.

انتهى غداؤنا بعدها بسرعة، وعندما حان وقت الانصراف سألني سعيد بن عزوز مباشرة:

- قبل أن نخرج من هنا أريد أن أعرف إن كنت ستكون معنا أم لا؟
- في أي شيء؟
- في المهمة التي سأوكلها لك.
- أية مهمة..؟
- توصـــل رسالة للسيد طارق كادري مدير الشركة التي تعمل بها.
- رسالة..
- ستكون رسالة شفوية على أي حال، قل إن الجماعة لن تقبل أن يغتني شخص دون حمايتهم..
- من تقصد بالجماعة؟
- هو سيفهم لا تقلق، أنت نفذ فقط، أعرف أن الأمر يبدو لك معقدًا جدًا، لكن أرجوك لا تقرر بسرعة، فكر في الموضوع، طلـــع وهبط، أنت بحاجة لهذه الجماعة، اختيارك أنت اعتبره

ضـــربة حظ لا تعوض، فرصة العمر، أنت من سينفذ المهمة، هذا شرف لك، شرف كبير.

ثم قبل أن يتركني أخرج من المطعم سالمًا معاق قال لي:

- هناك شيء آخر، أعرف أن ما بيننا من عداوة قديمة لن يزول بـــسرعة، فلا بد من الاختيار، إما أن نكون في جبهة واحدة، أو أعـــداء للأبد.. ولن ينفعك أخوك بعدها لأنه حلقة صغيرة في هذا السيستام المعقد.

* * *

بقـــي كلامه يرن في أذني لوقت طويل، ورغم شعوري بالقرف، والنفور، والخوف أيضًا مما رأيت وسمعت إلا أنني هاتفته في الغد وقلت له:

- أنا موافق.

وقـــبل أن أترك له فرصة التعبير عن فرحه المزيف أخبرته بشرطي الوحيد..

فرد كأنه يسخر:

- اشترط ما تريد، الجماعة ستفرح بك..

- في الحقـــيقة هي أقرب للخدمة منها للشرط، أريد أن أعرف أين تسكن امرأة فرت من بيت عائلتها منذ فترة.

- كـــل المعلومات التي تخص هذه المرأة ستكون بحوزتك خلال أيام لا تقلق سأتكفل شخصيًا بذلك..

كنت أعرف بأن بحث سعيد سيجعله يفكر كثيرا في سبب تحريّ عـــن رانية مسعودي، وقد يستنتج نقطة ضعفي الوحيدة في هذا العالم، وربمـــا يصل حتى لمعرفة حبـــي السري لها، قد يحدث ذلك، لكن منذ

بلغـــني أنها هربت من البيت، وأن أخاها كريم يبحث عنها بجددا، وهو يقـــسم بأنه سينتقم لشرفه بذبحها حتى عادت لي رغبتي في رؤيتها مرة أخرى.. والوقوف إلى جانبها مجدداً..

* * *

بعد يومين يخبرني سعيد بن عزوز عن مكانها:

- لقـــد وجدنا مكان إقامتها، تسكن بحي قصديري مع شخص اسمه علام محمد، هل تعرفه؟
- لا، لا أظن.
- حسب الوثائق فهو زوجها، لقد تزوجا منذ شهرين تقريباً.
- أين تقيم بالضبط؟
- علـــى بعد خمسين مترا من المطار توجد بنايات فوضوية وهم يستأجرون كوخا هناك.
- شكرا لك على هذه المساعدة.
- لا تشكرني، قم بمهمتك أنا في الخدمة.

* * *

لا أخفي بأنني، وأنا أتلقى تلك المعلومات استأت كثيرا، وشعرت بـــأنني أقـــوم بعمل غير أخلاقي، بأمر يسوء لي كما لها هي أيضاً، لقد اختـــارت الرجل الذي يناسبها فلماذا أريد أن أحرمها من هذه النعمة البـــسيطة؟ قبلت أن تسكن معه في تلك الأماكن البشعة، حيث الحياة بالكـــاد تـــشبه الحياة، الدنيا هناك قذرة، والناس تعساء بالفطرة، يـــرقدون ويـــنامون مـــع الحشرات، والفئران، والوسخ المتراكم، ولا يحلمون بأي شيء..

www.mlazna.com-رياح الشرق

ذهبت إلى ذلك الحي القصديري، وأنا متوتر جدا، بأحاسيس غير مضبوطة، متنافرة، أقدم رجلاً، وأأخر أخرى، لكنني ذهبت، متيقنا من أنهـــا ربما تكون فرصتي الأخيرة لرؤيتها، وهي هناك في قلب عالم آخر ارتـــضته لنفسها بعيدا عني، وعن دناءة أخيها كريم، توقفت بمكان غير بعيد عنه، ورحت أراقب المكان بغير حُب فظهر لي الحي أشبه ما يكون بالحزام الطويل الذي تتشابك فيه الأكواخ المصنوعة من الطين والحديد المهمل، والمغطى بأغصان النخيل، وعجلات السيارات المحروقة، سواقي لمجـــاري القاذورات، أطفال يلعبون، مراهقون يشربون ويزطلون، حياة مهمشة بالكامل، فقر ومذلة، تشعر كأنهم بعوض متعفن وسام، لا أحد يقتـــرب مـــنهم، غير بعيد من مركز للشرطة وبقربه سيتي جديدة من الـــنوع الذي بني بسرعة للتخفيف من أزمة السكن الخانقة، كان الجو ملفـــوفا بغمامـــة رماديـــة ورائحة المطاط المحروق والبول، والروث، حـــيوانات تلعـــف من بقايا حشيش غير صالح لإنعاش الطبيعة، وجوه مقفرة فارقتها الحياة بالتقريب، تساءلت ماذا تفعل رانية هنا؟ لماذا تقبل بهذا الضنك؟ بهذا العيش السقيم في أقصى درجات الانحطاط والخوف، مـــددت بصري فإذا بالحي الفوضوي القذر يمتد إلى ما لا نهاية مشكلا مدينة صغيرة مترعة باليأس، والإهمال، والتعفن..

بقـــيت غير بعيد أرقب الحي علني أراها للمرة الأخيرة، أشاهدها فقـــط، وأودعها بعيني، كان منظر الحي بكامله يثير بداخلي الرغبة في القـــيء، والإحـــساس بقبضة التعاسة والخوف، الأمور هنا ليست إلا صـــورة مـــصغرة عما سيحدث لنا لاحقاً، التعفن سيتراكم، سيزحف كالجراد، وسيمتد للداخل، ويقبض على زمام الأمور، سيصير الوجود مـــثل هذا الحي كيانا بلا روح، هشًا وفارغًا، محشوًا بالقذارة، ورائحة العفونة، منذورا لليأس والانحطاط، غامضًا، ويعد بكل الشرور.

بقيت واقفًا آمل أن تطل رانية وسط ذلك الخراب ولو لمرة واحدة من أي كوخ فأشعر أن الحب الذي أكنه لها يُولد من جديد، يُولد في القبح، والسواد، ويعطيني تلك الرعشات الخاطفة والغريبة، ويمنحني قليلاً من السكينة، وقليلاً من الهدوء. لكنها لم تطل، بقيت معلق البصر، والقلب، أنتظر بقلق تعيس ونشوة لم أفهمها أبدا حتى جاء المساء، فرأيت سيارة من نوع "فيات" تقترب من أحد الأكواخ، وتتوقف مثيرة خلفها زوبعة من الغبار، جعل الأطفال يمرحون ويتمرغون فيه، ويخرج منها ذلك الشخص اللعين علام محمد، عرفته بسرعة، بقامته القصيرة، ووجهه الأسمر السحنة، فإذا بباب الكوخ يفتح، وتطل منه رانية فجأة، لقد اهتز قلبي، وغردت روحي من جديد، واقشعرت فرائصي التي انتابتها حالة غير عادية، وبشعور لا يوصف رحت أنظر لطلتها، لابتسامتها الجميلة، وهي تفتح له الباب، وتحتضنه بين ذراعيها، ثم تدخله إليها.. تساءلت في غمرة ذلك الفيض العاطفي الغريب، وهيجان الغيرة، والحسد، والحنين لماذا أكن هذا الحب القوي نحو هذه المرأة بالذات؟ هناك المئات من النساء اللواتي يقبلن لو طلبت حبهن، وخاطبت عواطفهن، وسرحت بخيالهن للأعالي. لماذا هي رانية التي لم تقو حتى على إدراك نبل عواطفي نحوها؟ وكيف لي أن أبرر شيئا جنونيا كهذا؟ ليس له منطق في النهاية، ولا يقوم على أي حجة، أو عقل.

بقيت جامدا في مكاني، والباب أراه يغلق، ينتهي الأمر هكذا، يتوقف الزمن، تتحرك ثوان من عمر مليئ بالغيم الأسود والحزن، بقيت جامدا أبتلع بمرارة تلك الحالة التي لا تشبه إلا السديم، إلا الفراغ المتعب للكينونة، إلا الإحساس بأننا لاشيء أمام عبث يمثل هذه العبثية، ومقرا بأننا في أكثر الأحيان مسيرون لا مخيرون، وأن منطق الحياة يسير بغير

هُـدانا، إن ما يتحكم فينا هو دائمًا ذلك الذي لا نملك إزاءه أي قوة، إنه شيء متين بداخل الإنسان، عميق بحيث أنه من العسير التوغل فيه، إن الحـب هو كالشر، أعمق، وأعقد بالتأكيد، إنه العطاء والأنانية، إنه مـنح الحـياة، وأخذها، إنه الهلاك، ومنه تعلمت في تلك اللحظة التي كانت شمس الحب تغرب بقلبـي، وقد تحولت لكتلة من السواد، كم كان ثمن كل ذلك فادحًا للغاية، وأنني بغيابه خطوت نحو طريق جديد، طريق آخر.

* * *

في الغـد مـن ذلك اليوم عدت لذلك الحي القصديري مدفوعًا بـشعور غير مفهوم حتى بالنسبة لي، انتظرت حتى رأيت زوجها يخرج من الكوخ ويصعد في سيارته "فيات" ويغادر المكان لأتوجه نحو بيتها، غير متأكد إن كانت ستفتح لي الباب، هل كانت ستجرأ على محادثتي بعـدما قـررت ما قررت وفعلت ما فعلت، وقفت قرب الكوخ ثوان معدودات مترددًا، غير قادر على تحديد موقف مما أفعل ثم طرقت الباب فـسمعت صوت رانية يسأل: "من؟". فأجبت بتعثر: "رضا"، فعادت تـسأل: مـن يطرق الباب؟" فقلت بصوت مرتفع هذه المرة: "رضا، رضـا شـاوش".. أسرعت تفتح الباب، وهي متعجبة، بينما كنت أنا أكثر تعجبا منها وبلبلة، للحظة كدت أعود من حيث جئت، وأختفي نهائـيا عـن نظـرتها تلك، ونظرتي لنفسي التي كانت تجلدني بسياط الاحتقار، لكن ابتسامتها ذللت كل مخاوفي، أو أوهمت نفسي بأن الأمر كـان أهون مما تصورت، ثم أمرتني بالإسراع في الدخول: "لا أريد أن يـراك أحـد، المكان هنا مثير للشبهات، والكل يتحسس على الكل". دخلـت مستجيبا لطلبها، ووجدت نفسي في غرفة نوم بالية، وبقربها

مطبخ ضيق، راحت تعتذر عن هيئة المكان: "إنه مؤقت حتى نجد مكانا أفضل". ثم اقترحت عليّ الجلوس فوق سرير نومها، اختلط عليّ الأمر بصورة مزعجة، فعدت لحيرتي الأولى، وأنا لا أجد بما أخبره بها، حتى لتبرير سبب تواجدي في بيتها، وهي الآن زوجة رجل آخر، لكنني بقيت أتفرج صامتا، وغير منزعج من تلك الصورة العبثية والغريبة. تعجبت من جهة أخرى أنها لم تسألني كيف عرفت مسكنها وهي التي لم تخبر أحدًا بذلك؟ لكنني لم أطل التفكير وأنا أراها تحضر لي القهوة فوق صينية نحاسية، ثم راحت تستفسر عن أحوال أمي، وحي بلوزداد، وغير ذلك من التفاهات بينما كنت غير مصدق أنني معها في غرفة واحدة، أنني أجلس أخيرا مع حلمي في فضاء مشترك غير أنني بقيت لا أقوى على النظر إلى وجهها من دون ذعر شاعرًا بتأزم حقيقي، وضعف لا مثيل له. حتى وجدتها سألتني مباشرة:

"هل أخي هو الذي بعثك لتعيدني للبيت؟"

استغربت من السؤال أول الأمر، ثم سرعان ما رحت أبرر وجودي بطريقة ملتوية وكاذبة.

"لقد كنت عابرًا من هنا فلمحتك، وقررت رؤيتك لأنني كنت خائفا عليك، كما تعلمين لقد اختفيت دون أن يعرف أحد أين ذهبت".

لكن تعليلاتي تلك لم تنطل عليها، وشعرت أنها تضايقت مني فجأة، أو من كذبتي هاته، وأن قلبها صار يخفق بسرعة أكثر مما كان يخفق به قلبي أنا، ونظرتها تشرد قليلا ثم تعود. فمسكتها من يديها، ورحت أطمئنها بأنه مهما حدث فلن أخون سرها إلاّ أن كلامي هذا لم يطمئنها، ولم يشعرها بالثقة فيّ، لتسألني عن أخيها كرة مرة ثانية فقلت:

www.mlazna.com-رياح الشرق

- حسب المعلومات التي بحوزتي سمعت أنه انظم لجماعة الدعوة التي يقودها شيخ تعرف عليه في السجن، وهي تقوم الآن برحلات في أماكن متعددة لتبليغ رسالة الله.
- ألم تسمع أي شيء يخصني؟
- لا لم أسمع، فقط ما أخبرتني به والدتك بأنه غاضب، وأنه حلف بقتلك، أو تزويجك من الشيخ.
- من الشيخ؟
- الشيخ أسامة الذي صار تابعه الأمين..
- يا له من مريض..
- نعم أعرف لكن أطمئني ما دمت حيًا لن يفعل لك أي شيء.
- أتمنى ذلك.

بقيت أمسك يديها، وأنا أرتعش، ثم تجرأت ونظرت إلى وجهها الجميل، في محاولة لجذب روحها إلى روحي، فهمت ما كان يدور برأسي حينها، أو تكهنت به، وحاولت تجنب نظرتي بسرعة، وهي تنزع يديها من قبضة يدي، وتقوم من على السرير متوجهة لأقصى الغرفة ثم قالت:

- أعرف أنك تحبني، أو أنك أحببتني ذات يوم وبقيت تتمنى أن أكون معك.

وبصوت أقل رهافة، وأكثر شجاعة أضافت:

- لكنني لم أستطع نسيان ما فعلته عندما وشيت بي لأخي ذات يوم، وضربني أمامك، يومها لم أغفر لك ما فعلت، وشعرت أنك إنسان مخيف، صحيح أنك كنت طفلاً حينها، ولكن تلك الوشاية هي التي تسببت في توتر علاقتي مع أخي، وكل ما لحقني من مشاكل بعدها..

كانت تتكلم، وعيناها تدمعان فيما تصبب العرق من جبيني بمذلة، وارتجفـــت حنقا على نفسي ثم عليها، وقلت بصوت مرتفع غير الذي تكلمت به منذ قليل:

- لم أكن طفلاً كنت في الرابعة عشر من عمري..
- كـــنت أكبرك بثلاث سنوات، وكانت لي علاقة مع شخص آخر. لماذا لم تفهم بأن العواطف لا تأخذ بالقوة..
- لا يهم..
- بلـــى يهم، أراك الآن تقوم بنفس الشيء، تريد أن تسلب مني هـــذه الحياة التي أعيشها، ولا يهمك إن كنت مغرمة وسعيدة مـــع هـــذا الشخص أم لا، كل مايهمك أن تسرقني منه، أن تأخذني معك، أرجوك أتركني وشأني.

قلت متوترا:

- لا أريد منك أي شيء..
- أتمـــنى ذلك، ولكنني أخافك، أشعر أنك لا تفهم أي شيء في الحب، وكل ما يهمك هو أن ترضي أنانيتك..

حاولـــت الدفاع عن نفسي دون جدوى، كانت الجمل القصيرة الـــتي أطلقـــتها تشبه حبال الإعدام التي تلتف حول رقبة الواحد لترديه قتيلا، كل كلمة نطقت بها كانت تشبه عملية ذبح مروعة، كما لو أنها عـــرتني أمـــام مرآتي الداخلية، فقمت من على السرير وصحت بأعلى صوتي:

- أحـــبك، نعم أحبك، وأنا مستعد في سبيل هذا الحب أن أقتل الجميع...

كـــان ظلام العالم يغطي عيني، يتداخل فجأة مع خلايا روحي، يزغـــرد كحـــيوان مفترس، ينبع كالجرثومة، ينفجر كالبركان، يعوي

كـــذئب مـــنهار ومتوثب، يصرخ ويصرخ من دون توقف، يريد أن ينقض، وأن يخبش، وأن يهجم بكل قوة، وبكل شراسة، وبكل حب، وبكـــل رغبة سامة في الانتقام، بكل جنون، وبكل خيبة، وبكل ذلك الـــذي لا اســـم له ولا لون، حالة جديدة طفت على السطح بعد أن تفجـــرت من الداخل، عيناي احمرتا، توقدتا، تفجرتا، تفتحتا، وصارتا تـــنطقان بشيء آخر، بدم أحمر كأنه خارج لتوه من كابوس بجزرة لم يبق فيها أي أحد على قيد الحياة.

قمـــت من على السرير وأمسكتها من كتفها العريض، فحاولت الـــتملص دون أن تقـــدر، رحت أقبلها على رقبتها وشعرها الحريري الـــناعم، وهـــي تعتـــرض، تقاوم، وترفض، تحارب جسدًا غريبًا يريد اقـــتحامها، أمـــسكتها من شعرها، ودفعتها نحو الحائط، ورحت أهاج أمـــزق دبـــر فستانها الأبيض، وأنـــزل سروالي من على أسفل بطني، وبسرعة وضعت قضيـــي داخل تلك الحفرة السوداء التي كانت تتقطر عـــسلاً ذائبا، ورحت أوغل داخلها بعنف متوحش، وهيجان أعمى، وبقيت هي كالفريسة التي تقاوم دون أن تقدر على الانفكاك من أسر صيادها..

كانـــت لحظـــة ســـيئة دون شـــك، مليئة بالغموض، والتنكر، والاجحاف، والخوف، لا متعة فيها مع أنني صعدت إلى أعلى مستوى، لا روح فـــيها مـــع أنها كانت لحظة لفقدان الروح، ولهيجان الجسد، ولانفلات العشق، وانكسار الحقيقة، وتوتر الحالة..

لم يدم ذلك إلا دقائق معدودات وانتهى ذلك العراك القوي بيننا، وقد زال الهيجان، أو برد، ورأيتها تتملص أخيرا من قبضة يديّ، وترمي علـــى الـــسرير باكـــية، في تلك اللحظة الغارقة في حفرة العدم ووجه الظلام. رحت أرتدي سروالي بلامبالاة، وشعرت، وأنا أخرج من بيتها

بـــأنني خـــلاص تغيرت، صرت شخصًا جديدًا بالفعل، وأنه يمكنني أن أفعل أي شيء أريده فلم يعد هناك ما يخيفني في الوجود، وأنني من تلك اللحظة قد ذهبت للضفة الأخرى من العالم.

* * *

لا أدري ماذا حدث بعدها..

فلـــم أعـــد لذلك الحي القصديري لأستطلع الأمر، ولأعرف إن كانـــت باحت بالسر لزوجها أم لا. لقد حاولت نسيان تلك الحادثة بكل ما أوتيت من قوة منشغلاً عنها بالأمور التي كانت تنتظرني..

ذهـــبت لمديـــر شـــركتي طارق كادري وأخبرته بما طلبوه منه، وتعجبت من أنه لم يغضب من ذلك، بل ابتسم وهو يقول لي:

- حاضر أنا في خدمتهم..

وعندما أخبرت سعيد بن عزوز بالأمر فرح وقال:

- من يجرؤ على مخالفة قانون الأمر الواقع..

كنت بحاجة لرؤية ذلك الرجل السمين الذي تحدث معه في مطعم "باريس الصغيرة". لا أعلم لماذا تمنيت الجلوس إليه، وسماع قصة والدي، كمـــا لو أنه لم يعد يهمني في النهاية إلا أن أكون في الضفة الآمنة من هذا العالم السيد، والمتمكن..

ذهـــبت للمطعـــم عدة مرات دون أن أبصره، ولكن شخصًا من حاشيته اقترب مني وسألني عن سبب بحثي عنه فلم أجد ما أقوله سوى أنني صرت في المنظمة الآن، فضحك من التسمية التي أطلقتها على تلك الجماعة ورد مازحًا:

- هل تظن نفسك في فيلم إيطالي؟

ليضيف بسرعة:

www.mlazna.com-رياح الشرق

- حسنا تعالى معي لآخذك إليه، فهو أيضا يريد رؤيتك..

فخرجنا من المطعم حيث اقتربت منا سيارة كبيرة من نوع 4x4 فصعدت من الخلف ليركب هو من الأمام مع سائق أسود البشرة، لم يتكلم الرجل معي طوال الطريق، وشعرت أنه مر على عدة أماكن، وسار في طرق متشعبة حتى لا أعرف المكان بالضبط، وإن خمنت أنه بالقرب من سيدي فرج حيث توقفنا أمام بناية شاهقة تحيط بها حديقة واسعة وجميلة، وسور عظيم يمنع أي متسلل من التفكير حتى في الاقتراب من الباب الذي كانت تحرسه كاميرات مثبتة في أعلاه.

دخلت البيت، أو القصر، وأنا لا أصدق، أنني أقترب من هؤلاء الذين سمعت عنهم أكثر مما يجب من حكايات وأساطير ترعب أي مجنون فما بالك بعاقل.

وجدت الرجل السمين ينتظرني في الصالون، لم يترك لي الفرصة كي أسلم عليه، وهو يأمرني بالجلوس بالقرب منه فوق إحدى الأرائك الواسعة والمريحة. كان ينتظر حضوري على ما يبدو وقال لي بسرعة:

- خذ هذه الرسالة لطارق كادري فيها كل ما نريده منه، ونسبة الدفع.. الخ وسيكون لك معنا نصيب..
- حقا، سآخذ نصيبًا من هذه الصفقة؟!

رد بغير مبالاة:

- بالطبع، لأن كل شيء سيتم من خلالك، أنت من يستلم المبالغ، ولك خمسة بالمائة كل سنة، لا تقلق ستزيد حسب أرباح ذلك الكلب إنه غني جدا وسيدفع..

ثم أخبرني بأن السائق في انتظاري بالخارج، ولم يعطني فرصة للحديث في أي شيء آخر، شعرت بثقل المسؤولية حينها، وظهر على وجهي بعض الخوف، وأنا أنهض لأصافحه منحني الظهر كما رأيت

سـعيد بن عزوز يفعل أكثر من مرة، وهو يبدي خضوعًا مقززًا للغاية، وهممـت بالخـروج، لكن قبل وصولي للباب لا أدري كيف امتلكت الشجاعة لألتفت، وأساله عن والدي:

- هل تسمح لي أن أطرح عليك بعض الأسئلة عن أبـي؟

رأيـت الـرجل السمين يتمدد على الأريكة الجلدية، وقد أشعل سـيجارًا، وراح يقـذف سحابات دخانه في السماء. لم يسمعني، أو سمعني دون أن ينتبه لما قلته، فأكملت سيري، مبتعدًا عنه حتى سألني:

- ماذا قلت؟

- والدي.

- ما به والدك؟

بتعثر كبير سألت:

- أريد معرفة بعض الأمور عن حياته معكم.

عـاد للـصمت وهـو يكمل نفث دخانه، ثم براحة يده أمرني بالانصراف فغادرت المكان على الفور..

* * *

لم أطرح مثل هذه الأسئلة على ذلك الرجل الكهل والسمين مرة ثانية، أو لم أحاول، إذ فهمت حرصهم على التكتم، وعدم رغبتهم في فـتح ملفات الماضي الخاص بهم، وكل ما قمت به بعدها كان تنفيذ ما يطلـب مني فعله، قمت بدوري كما يجب، بل تفننت، وأنا أحس بأن جهودي ستثمر حتمًا، وأن طريقتي ستعجبهم بالتأكيد فلم يكن عندي حد، أو لم أضع لنفسي حد، فهمت من خلالهم أن شطارتي كانت في إثبات وفائي لهم، وولائي لميولهم، وقدرتي على التنفيذ المحكم والدقيق لما أنجزه من مهمات، ومع كل مهمة كنت أنجزها كنت أشعر بأنني أتعمق

أكثر في منظمتهم تلك، وأسير بعيدا في طرق ظلامهم ذاك، وأصبح مع الـوقت جزءًا منه، جزءًا لا يتجزأ، تحسنت بعدها علاقتي مع سعيد بن عـزوز، رغـم حذره المفرط مني وهو يراني أتقرب كل مرة خطوة أو خطوتين من تلك الجماعة، أو الجهاز، أو المنظمة، و لم لا أقول العصابة، لكـنها عـصابة تحكـم، تسير كل شيء بيدها، ولها آليات وقوانين، ومظاهـر خادعة، كان الأمر يبدو لي مخيفًا، ومروعًا، وأحيانا سورياليًا ولامعقـولاً، لكن حقيقيًا، وملموسًا، وصرت شيئا فشيئا على بينة من تلك الحقائق التي لا تقال، والتي يستأثر بها الخاصة فقط، ومدركا للعبة الكوالـيس التي لا يجرأ أحد على التحدث عنها، و لم يعد فجأة التاريخ بالنـسبة لي لغـزا محيرًا ومجهولاً، ولا سريًا، مخفيا عن أنظار العامة من الناس، كما لم تعد القضايا المسكوت عنها صمتاً مطبقاً، مجرد أسئلة بلا جواب، لقد فهمت، ووعيت، وأدركت، وانكشفت لي بعض الأشياء العجيبة، وأنا أقترب منهم بخطواتي البطيئة تلك، حتى لا أقول الزاحفة، فلم أصب ثقتهم، وهم لم يعطوها لي بالمرة، لقد كانوا أسيادًا بالتأكيد، لهـم مـنطقهم الخاص في الحكم على القضايا وقراءة الحوادث، كنت أراهـم يتهامـسون، ويضحكون، ويسخرون ويمزحون، ويتقيئون من السكر، والمتعة، والغواية، كانوا ملائكة وشياطين، رؤوس الفتنة، وأئمة الخلاص، وأحيانا يبكون، كان بكاءهم غريبًا حتى أنني لم أكن أفهم إن كان ما يسيل من عيونهم دموعاً حقيقية، أم شيئا آخر، وحتى لو فهمت فلـم تكـن عندي الجرأة لأسأل عن سر دموعهم تلك، ومن أي مادة صـنعت وهـل هي نتاج ضعف وحزن، أم قوة وجبروت، لقد رأيت أحـدهم يبكـي لأن شخـصًا آخر نام مع خليلته التي كانت تغرقه بمباهجها اللذيذة، وأنه بكى لأن تلك المومس لم تستشره في خيانتها له، وأنـه قتلها ثم دمعت عيناه لأنه لن يتذوق ملذات جسدها مرة أخرى،

ورغم أنهم كانوا يتقاسمون فيما بينهم كل شيء، إلا أنه لم تكن تنقص أي واحد منهم الرغبة في الاستحواذ على أكثر مما لدى زميله في الجهاز، ولم أفهم أي سر حقيقي يخبئونه، وكيف يديرون شؤون الحكم المخيفة فيما بينهم، فلم يكن ذلك بالمتاح لي، وقد أخبرني الرجل السمين مرة، وهو يحذرني بطريقته، وقد بدأ يشعر بأنني صرت ألعف مثلهم من المرعى الكبير "كل وأشرب، وتنعم، ولكن حذار أن تدير ظهرك لأحد" ولم أدره ليس إستجابة لرأيه ولكن بسبب غريزة البقاء، وإن كنت أدرك أنه ما من جدوى من ذلك، فلقد كان بإمكانهم طعني من الأمام فقوتهم كانت بلا حدود، وشرههم بلا نهاية، وكانوا يحسبون لكل صغيرة ألف حساب، ولا تفوتهم أي نقطة مهما كانت تافهة، حتى أنهم مرة بعثوني لأحقق في أمر عجيب، وهو ارتفاع نسبة الانتحار في مدينة قريبة من الجزائر العاصمة، ولقد تخيلت أنهم يمزحون بادئ الأمر، وهم ينظرون للأمر على أنه خطير، ومهدد للاستقرار العام، وعندما سألتهم "كيف يرونه خطيرا على أمنهم هم؟" أجابني الرجل السمين الذي كان الوحيد المخول له أن يتكلم معي بأن الانتحار ربما يكون نوعًا من الاحتجاج على الوضع وهذا غير مقبول..

أظن بأنني فهمتهم، وأظن بأن فهمي بقي رغم ذلك قاصرًا، وهم على بساطة تكوينهم، وقلة زادهم التعليمي كما لاحظت وخبرت، إلا أنني أدركت ذلك من صفاتهم المميزة تصنع البله، وأحيانًا البلادة، والجهل وسوء الفهم، وحتى قلة الذكاء، لكن عندما تحين ساعة الجد لإعطاء الأوامر، أوتطبيق ما يخططون له تراهم أشخاصًا آخرين، من نوع مختلف، كانوا يشعرونني أنني مهما تعلمت لن أبلغ شعرة من حنكتهم وحكمتهم، وذكائهم العظيم، وكنت أعترف لهم بذلك، فهم كانوا أشرارًا أقوياء، وحكماء عُظماء، وأصحاب رأي سديد، وحكم

www.mlazna.com-رياح الشرق

شديد، وكنت في حضرتهم دون شك أشعر بقزميتي وتفاهتي، وكثيرا ما تساءلت عمّ كان يشعر به والدي حينما كان في خدمتهم، وتحت سطوة حكمهم، وهم يستعملونه كما يشاءون في ترهيب المشاكسين، وظلم المعارضين، وقهر المختلفين، أكان يحس بنفس ما أحسست به وأنا تحت حكمهم، وخاصة حينما أقف أمامهم، وهم يأكلون، ويسرقون، ويسبون العالم والأرض، والشعب، والجميع بكل أنواع السُباب، فلم تكن لوقاحتهم حدود، ولا يعرف الواحد متى يبدأ غضبهم وأين سيتوقف وكيف سينتهي، وبالتأكيد كان الغضب ينتهي بحلين لا ثالث لهما، إما: تعذيب الشخص أو تأديبه، بالسجن، أو بعقوبات كثيرة يختارونها له بعناية بحسب موقعه الاجتماعي، ومرات لا يستعملون أي عنف. يقومون فقط بشراءه، وكثيرا ما سمعتهم يقولون لأحد عسسهم الصغار: قدر لنا ثمنه، وأحيانا- يا للسخافة- كان أحدهم يبتسم، وهو ينظف أسنانه من بقايا لحم مشوي فيأمر: "أعطيه عظمة ليقددها قليلا فهو جائع" وأذكر أنهم أرسلوني أكثر من مرة لأشخاص تُعساء من عامة الشعب، لا يفهمون في تلك الدهاليز شيئا، كي أبلغهم بأن هناك منحة للدراسة في الخارج، أو سكنا شاغرا، أو منصبا حقيرا، فيهرلون نحوه مسرعين وينسون ما كانوا يرددونه في المقاهي، أو الجامعات، ويتحولون لبياعين، وعسس صغار يحرسون بدورهم غيرهم، ويكتبون تقارير عن أبناء جلدتهم، غير أن الأمر لم يكن ينجح مع الجميع فكثيرا ما صادفت رجالا من طينة مختلفة، يرفضون الخضوع، وعندهم استعداد للتضحية فكنا نؤمر بتركهم يموتون في اللامبالاة، والعزلة والتهميش، وإجبارهم على العيش في أسفل الحياة رغم هذا كانت جماعة الظل تخشى منهم أشد الخشية وتكرههم أشد الكره. ولكن نادرا ما تقدر على النيل منهم، فأسمعهم

يقولون عنهم: "دعهم يتكلمون، ماذا سيفعل الكلام الأمور بيدنا، نحن يملك زمام المصير".

لقـــد خضعت لعالمهم ذاك، خضوع الأعمى الصامت، وحصلت علـــى إمتـــيازات لا حصر لها ولا عد، وارتقيت مع الصبر، والجهد، والـــوقت لأصل إلى مكانة كبيرة بينهم، غير أن ثقتهم فيّ لم تتقدم شبرًا واحدًا، أما ثقتي أنا فيهم فبقيت مثل ثقتهم في جد مهزوزة، لقد كنت أشعر إنني منهم، وأن هذا المشترك بيننا هو حقيقتي الوحيدة حينها.

* * *

مـــع مـــرور السنوات شعرت أنني تحولت، صرت شخصًا آخر، يجـــب أن أؤكـــد هذه الحقيقة، وأنني في تلك اللحظة الزمنية المدنسة فقدت روحي، نعم روحي، لا أدري ما هي الروح، كنت أعرف ذلك مـــن قـــبل، أي حينما كنت أسعى لأكون شخصًا جديدا، مؤمنا كل الإيمـــان بـــأن هناك مثالاً عادلاً يجب أن يتحقق فيّ من الداخل، وبأن الحياة مفتوحة على أنقى الأشياء، وأجملها، أن الحياة تستحق أن نحيا من أجلـــها، ولأجلها، أن الحياة هبة من السماء لا نملك إلا نعيشها في أنبل صورة وأجمل حلة، تصورت أن ذلك انتهى من حياتي للأبد، وفي تلك اللحظـــة لم تعد الحياة بالنسبة لي إلا هُم، جماعتهم، عصابتهم، قدرهم، لم أعد أثق في خيارتي القديمة، وروحي فقدتها في تلك البرهة من الزمن، في ذلك الزمن اللازمني، كيف أصفه حقا؟ هل هي روحي التي فقدتها، لا بالتأكـــيد، فقـــدت شيئا ما في روحي، شيئا ما، ما هو؟ هل يمكن التدلـــيل عليه؟، لا أدري، أو لا أظن، حتى لو شرحت ذلك لنفسي لما كان له أي أهمية، إن الروح عندما تفقد روحها لا تعني شيئا، تضيع منا فقط، أو يضيع منها ذلك الذي يضيع فصارت ضائعة، وصرت ضائعا

مـثلها ومـثلما يخسر الإنسان حقيقته خسرت روحي أنا، خسرتها، خسرت ذلك الذي لا يحدد فيها، ذلك الذي هو بالتأكيد مربط الفرس في الفـرق بين هذا الإنسان وذاك الإنسان، ما الفرق بين هذا الإنسان وذاك، لا فرق، هكذا سأجيب: أجبت، روحي فقدتها، والحقيقة أيضا، وصرت عاجزا عن التفكير لأنه عندما تفكر وأنت بلا روح لا يمكنك أن تفكـر، إن كـل الأفكار لا معنى لها، ستخرج الغريزة، سيتحول الإنـسان إلى بـشاعة مطلقة، وشر مطلق، وخراب مطلق، يتحول إلى كـائن آخر، كائن ممسوخ، لا دهشة في قلبه، لا سؤال في عقله، كائن مـشوه تـصنعه ظروف الفقدان تلك، حياة بلا روح تعني كل شيء، إمكانـيات جديدة كلها مخططات جهنمية للموت، وللقتل، ولتصفية النار الحقيقية في جوهر الإنسان.

هـل كنت أقاوم ذلك الفقدان؟ ذلك الإحساس الغريب بالليل، والظلمـة القاتمة، والروح التي لم تعد لها روح؟ أم فقط هي لحظتي التي كنت أرى عبر مرآتها الشفافة، روحي وهي تنتهي، وهي تذهب ذهاباً نهائياً، بلا أمل عودة للحياة التي كنت أتمناها ذات زمن بعيد.

لا أدري، ولكـن في تلك الدوامة كان كل شيء قد فقد وجهه، مـثلما فقدت أنا روحي، صار العماء كليًا، والهياج اللامرئي للحيوان المفترس كلياً هو الآخر، صرت أنا، ولست أنا، صار الخيط الرابط بين الأول والـثاني معـدومًا، ولم يعد وجهي يحيل على وجهي، وذاكرتي تقـيأت ماضـيها البريء لتقذفه في حمأة نار مستعرة فإذا بـي أولد شخصًا آخر، مليئا بأشياء أخرى، ودماء جديدة.. دماء آخرين أمتص مـنهم روحهـم، روحهم البريئة لأعيش، صرت الشر، ودمية الشر، صـرت الشيطان، ودمية الشيطان، صرت تلك النار اللاهية والمستعرة، الـنار الحارقـة والمسعورة، صرت مثل دمية النار، تحرق من يمسكها،

صرت اللاشيء الفارغ من أي معنى، والذي لن يعيش إلا عندما يقدر على مص دماء الأبرياء الذين يواجههم..

لقد بدا لي العالم حينها واسعًا بلاحدود ومفتوحا على احتمالات لانهائية، ومثل دراكولا الذي تخلقه حالة انعدام التوازن بين النهار والليل يخرج ليختار ضحيته كل ليلة، ينقض على الأضعف بالتأكيد، البعض ليتلذذ بطعم الدماء الحلوة للبعض، وليحول البعض الآخر إلى شبيه جديد يحميه من وحشة الوحدة، فكلما عمت الكارثة إزداد فرح دراكولا، وكلما زاد الليل من وقته زادت حياته شراهة، تلك هي طبيعته الجديدة ونوعه الجديد.

* * *

كانوا يطلبون مني أشياء غريبة، وكنت أنفذها، وصرت بعدها واحدا منهم أتنعم بالحياة كما يتنعمون بها، ولم يعد عندهم مانع أن أجالسهم على موائدهم الفاخرة بمختلف المطاعم الفخمة التي يترددون عليها، وكانوا يحرصون على أن ألبس أحسن الثياب، وأظهر بأناقة كاملة، كنت أصغرهم سنا، ولكن أقلهم اندفاعاً، وكانوا يتباهون بي كواحد من الذين استطاعوا أن ينقلوهم من حال لحال آخر، غير أنهم كانوا يبعدونني عنهم عندما يتعلق الأمر بتقرير خططهم الجهنمية فكنت بالنسبة لهم فقط المنفذ لما يقررونه، وكان الرجل السمين أكثرهم قربًا مني، وكان يُظهر نحوي ودًا عجيبًا كنت أشك فيه غالب الأحيان، فهو من علمني الحيطة من كل ما هو طيب، وودود، وأفهمني أن الأمر معي مختلف قليلا وشرح لي ذلك بقوله:

- لم يرزقني الله أولادًا وأعتبرك ابني الوحيد

www.mlazna.com-رياح الشرق

فكـــنت رغـــم كل شيء أسعد بسماع هذه الكلام من معلمي الأول ثم يضيف بعدها نصائحه الثمينة لي:

- كـــل وتـــنعم، عش وأطلب المزيد، أنت شاب ذكي، وغدا بالتأكيد ستكون خير خلف لنا..

وبيـــنما كـــنت أتقدم في سلم الترقي التدريجي نحو الصعود لقمة فقـــدان الروح، كان سعيد بن عزوز يتعثر بعض الشيء، أو لا يصعد أبـــدًا، برغم ما كنا نحس به من توحد كامل في ذلك المشروع الجنوني أي أن نكون أسيادا على أولئك العبيد الذين خلقوا فقط لنمص دمائهم كل يوم وليلة..

كـــان يتعثـــر، أو كان يشعر أنه لا يستطيع التسلق مثلي بنفس الـــسرعة التي أصعد بها، وعندما نجلس معًا كان يفاتحني في الموضوع، ويطلـــب مني أن أتوسط له، وأن أتحدث بخير عما يقدمه من خدمات جليلة، وكنت أفعل كلما وجدت فرصة لذلك بدافع الشفقة عليه أكثر مـــن أي شـــيء آخر. غير أن الرجل الكهل والسمين كان يرفض أن يـــسمع مـــني كلمة واحدة عنه، بل كان أحيانا يغضب عندما ألح من جانبـــي علـــى أنه شخص وفيّ للجهاز، فيرمقني بنظرته التي تعيدني لمكاني الصغير في الترتيب الهرمي للجماعة ثم يتبعها بالقول:

- ومن أدراك؟ مسألة الوفاء والإخلاص نحن من يقررها.

ومرة، قال لي، وهو سكران دون أن أفتح معه موضوع سعيد بن عزوز:

- كـــان والده معارضًا، وأنا أكره المعارضين، بينما والدك كان مخلصًا لنا، ولهذا أنا أعرف من أي معدن جئت.

ثم أضاف وقد احمرت عيناه من السكر وبلغ منه مبلغا كبيرا:

- ذات يوم سأخبرك بما فعله والدك لأجلنا..

تـــركني متبلبلاً من جديد، فلقد قررت أيامها عدم الحديث عن أبـــي، لقـــد خرجت من تلك القوقعة نهائيا، ولم يعد لي أي علاقة بماضـــي ذاك، كنت هاربًا منه، مع أنني كلما هربت كلما عدت، حتى أيقـــنت بـــأنني مـــرتبط به بخيط سحري، ومندمج حتى العظم بداخل تلابيـــبه، لقد فتحت الباب أخيرا لنفسي كي أكون مثله، شخصًا ينفذ الأوامر ويعيش بلا ضمير.

صرت أبـــي بشكل لاواع، فكرت حينها في الناس الذين عرفتهم سابقًا، فكرت بشكل خاص في عمي العربـــي هو الذي كان سيقول لي بالتأكيد:

"ناضلت بكل شراسة كي لا تكون مثله، ثم ها أنت ترتدي ثيابه القديمـــة، إن والـــدك لم ينتحر إلاّ ليبرئ روحه، ويصفي خلافاته مع ضميره، وأنت ما مصيرك يا ترى؟

مـــصيري يا ترى؟ كنت في الخامسة والثلاثين، كنت لا أزال أملـــك قـــوة الحركة، والرغبة في الاستحواذ على كل ما يوجد في طريقـــي، وكانت الجزائر بلادي التي أملك قدرها الآن بيديّ، ليس تمامـــاً، هناك من هم فوق، ولكن سيأتي دوري، وكنت متأكدًا من ذلك.

* * *

لا أدري لماذا استغربت، وأنا أنصت لسعيد يخبرني بما رآه:

- هل تذكر تلك الفتاة التي كانت تسكن في حينا؟

- أية فتاة؟

- تلك التي سألتني عنها مرة وأخبرتك عن مكان إقامتها.

تصنعت اللامبالاة وأنا أجيبه:

- آه نعم، تذكرت. ما بها؟
- المسكينة..
- هل حدث لها مكروه؟
- ليس تماماً، ولكن يبدو أن زوجها طلقها، وأصبحت تعمل في كاباريه ليلي.

لا أخفـــي بأن الخبر أثارني حينها، وخاصة طريقة سعيد بن عزوز في الحديث، كان فيها خبث كبير.. وسمعته يقول من جديد:

- إنها فتاة جميلة بالفعل وخسارة أن تتحول بين عشية وضحاها لعاهرة.

كان تسميتها بعاهرة طريقة لاستدراجي حتما للحديث عنها، أو لمعـــرفة مـــدى تأثري بالخبر، وقراءة درجة وقعه على نفسي، لم يكن يخيفني سعيد حينها، دون أن آمن جانبه، بقدر ما صار يثير شفقتي، ليته ســـار في طريق والده لكان أحسن له من هذا بالتأكيد، لقد تركوه في منـــصبه التعيس ذاك يقدم أقذر الخدمات من دون مقابل، كان يكفيه مجـــرد ابتسامة من ذلك النوع المزيف فيشعر بأنه حقق ما لم يحققه أي شـــخص آخر في حياته، وكان المسكين ينتظر فرصته بالتأكيد، لحظته الذهبـــية التي تحوله إلى مصاص دماء جديد مثلي تماما، مصاص يعيش كملك ليلي بلارقيب، أو حسيب.

لم أسايره، وهو يحاول أن يجرني لحكايتي مع تلك المرأة التي ولأول مرة لم يهتز قلبـــي عند ذكر اسمها، حتى ظننت أنني تخلصت من حبها بالفعـــل، أو لم أعد أحبها، أو أن ما كان حبا قويا لم يعد له مكان في قلبـــــي، صار لي قلب لا يُحب، ولم يعد قاموسي يتسع لهذه العبارة الـــرقيقة، لم يعد هناك قلب، فكيف يكون هناك حب، فقط، رن اسمها في أذني، حينها، كقطعة من ذهب تسقط على الأرض..

لقد فكرت أن كل ذلك الانهيار حدث بالتأكيد بسببي، وأنه خير لها أن تكون عاملة ليل من زوجة في البيت، ومربية أولاد، وعيش حقير في حي قذر كالحي الذي سكنته مع ذلك الأحمق..

واصل سعيد كلامه:

- زوجها سافر إلى كندا، وتركها وحيدة مع ابن ظل يقول إنه ليس ابنه.

إنه يضرب الآن كأعمى على الوتر الغامض، والحدس الذي يتمتع به كلب مدرب على التحريات.

- لقد هجرها، وهي الآن تعمل في كباريه السعادة كل ليلة من العاشرة مساء حتى الثانية صباحاً..

أوقفته بسؤال مباغت:

- ما الحكاية؟

- لا شيء، فقط أردت إخبارك بأنني جندتها لخدمتنا..

وقفت متفاجئاً من هذا الكلام، كدت أصفعه، وأنا متوتر، لم أفهم لماذا توترت، يفترض أن لا داعي لذلك لقد كان سعيد يقوم بدوره الحقير وكفى، بتلك الوظيفة التي يحسن أداءها على أكمل وجه، فلما توترت، لما شعرت أنه في هذه النقطة بالذات يستفزني، أو يحاول على الأقل، كان يتكلم معي وهو يراقب تقلص عضلات وجهي، نظرتي إلى أين تذهب وكيف أتواصل معه وبأي طريقة أتحدث معه، كنت أدخن فقط، وأنظر للسقف، وشيء ما يرتعب، ما هو هذا الشيء؟ ألم أترك ذلك الماضي اللعين ورائي؟ لماذا هذا الكلب سعيد يرغب في إرجاعي إليه؟ وهل يكفي نطق كلمات عن رانية ليعيد لي حالة ما قبل دراكولا..

www.mlazna.com-رياح الشرق

"لا لـــن أقـــبل هذا اللعب معي"، و"لن أرضخ لهذه الطريقة في اســـتدراجي للحديث عما تناسيته بألم فادح، ولا لابتزازه السخيف"، فقلت وقد هدأت:

- افعل ما تراه صالحا للجهاز.

- طـــبعا هـــذه هي رؤيتي يا سيدي المحترم. إنها فتاة جميلة ولا أخفيك أنني تعجبت من كوني لم أرها كذلك من قبل، طوال تلك السنوات التي عرفتها في الحي لم أر فتنتها تلك. لا شك أنني كنت أعمى.

قالها ساخرًا من نفسه، وضحك بينما قمت أنا من مكاني وهممت بالانصراف دون أن أجيبه، وفي الخارج، وقد قطعت مشيا كل بنايات الحـــي بعـــد أن طردت سائقي الخاص كان شيء ما يهتز في قلبـــي، ذكريات حبـــي القديم تستفيق دون أن تستفيق.

"اللعنة عليك يا رانية".

* * *

لا أخفي بأن الخبر أثار بداخلي كل أنواع الغيرة والشر، وبعث فيّ إحـــساسا بالألم، دون أن يكون لهذا الألم الجديد علاقة بالحب، ولكن بالمـــسؤولية، لقد تحطمت حياتها بسببـــي حتماً، وهي تعيش الآن في عالم آخر، لقد انتقلت كما قُدر لها ذلك من حياة لحياة، كم بدت لي الأمـــور حيـــنها ســـيئة وهشة، كل شيء يمكنه أن يتحول، ويتدمر، ويموت، ويعود بعدها من جديد في صورة أخرى.

كـــنت متأكدًا من أنني لو التقيت بها مجددا في هذا الكباريه الذي تحـــدث عـــنه سعيد بن عزوز لما عرفتها، أو على العكس لعرفتها تمام المعـــرفة، لقد رأيت فيها دائما ذلك الجانب الآخر من المأساة، وهي لم

تكـــن واعية دون شك، وكان يمكنها (متذكرا حادثة الاغتصاب) لو أنهـــا رأتني بعد كل تلك السنوات أن تشيح بنظرها عني لما كان حدث أي شيء مكروه بعدها، لفهمت أنها لن تكون لي، وإنني لن أكون لها، والحياة ستسير بها كما بـــي في مسارات أخرى.

لا أدري كـــيف أن مجرد لقاء أعاد تفجير أقدارنا بذلك الشكل المأســـاوي، وســـار بنا في هذا الاتجاه الغامض لليل، كل في خيار أشد ظلمة من الآخر..

اقتـــنعت بعدها بأنه لا فائدة ترجى من معاندة القدر حينها، لقد صـــرت واحدًا من تلك الكُلية الغامضة التي تتحكم في مصائر وأقدار الآخـــرين، وأنني لم أعد أعيش مع التحتيين كالحشرات التي يمكن أن تسحق لمجرد أنها كانت في طريق أقدام غير مبالية، لقد صارت لي حياة رجـــل يمص دماء الناس، يقتات منهم بلا رحمة، ولم يعد يكفيني ذلك المـــص اللعين لدمائهم بل صرت أكثر بشاعة من هذا إذ انتقلت لمرتبة أخرى حيث رُحت آكل لحومهم..

عـــندما قلت هذا الكلام أمام الرجل السمين ضحك مني ضحكًا طويلاً قبل أن يرد عليّ:

- يبدو أنك تتخيل كثيرا.

فأجبته بصراحة، وأنا غير مبال لسخريته تلك:

- لا علـــى العكـــس، هؤلاء المساكين يتحدثون بهذه اللغة فيما بيـــنهم، أنا أسمعهم وهم يتقاتلون بألسنتهم كل يوم ويهددون بعـــضهم في كـــل لحظة: "نَحَكْمُ أَنْمَصْلُو دَمُو" أو "رَاهُمْ يَاكْلُـــو في بَعْـــضَاهُمْ" في البداية لم أعط لهذه التهديدات أي اعتـــبار ثم أرشـــدتني لكي أستعملها بدوري، ليس فقط مجرد كلام ولكن..

- هل تريد أن تأكل لحمهم بحقيقة؟
- ولمَ لا؟
- أغرب عني الآن، يبدو أنك بدأت تجن، السلطة ليست هكذا، كـــن غليظًا ولكن ليس بطريقة كانيبالية، ماهذا الكلام، هيا انصرف عن وجهي الآن.

لقـــد جربت هذا الحديث مع ذلك الرجل السمين والكهل، كان يـــشعر أنـــه كبر، وضميره بدأ يؤنبه على أشياء ارتكبها في زمن سابق لكن بما أنه كان واحدًا من قمم الجهاز فلم يكن يسمح حتى أن يخاطب نفسه بهذه الأمور.

كان يصارحني ويقول متحسرًا أحيانا:

- لماذا فعلنا كل هذا؟

فـــلا أجد بما أجيبه، يستمر في الحديث بنوع من الشجن دون أن يتوقع جوابا مني:

- لمصلحة البلد، لكي لا يسقط في يد السفهاء.

ثم بعد صمت قصير:

- لقـــد بـــدأت الأمورهكذا بعد الاستقلال، التقينا، وتحدثنا، وكانـــت الفكرة تأسيس جماعة في الظل تحمي البلاد وتسيرها من خلف ستار..

ليضيف وقد احمر وجهه:

- لمـــاذا ســـارت الأشياء بعدها عكس ذلك، لقد حاربنا في الـــبداية المعارضـــين العمـــلاء للإمبريالية، ولكننا أصبحنا العملاء، نحن من يخدم مصالحهم، ونسيرها لهم، ونأخذ بعض الفتات..

يتجرع كل ذلك بمرارة ليواصل:

- الحقـــيقة، إنني نادم على بعض الحوادث التي ارتكبتها بنفسي، لـــيس نادمًا، ولكنني ناقمًا لأنه كان يمكن عدم فعلها دون أن يختل أي شيء.. تصور لقد صفينا رجالا ظننا أنهم خطر على أمن البلاد، ولكننا بداخلنا كنا نعرف أنهم ليسوا خطرًا بالمعنى الكـــبير إلا علـــى مـــصالحنا نحن. كانوا ضد زعامة الرئيس الواحد، كانوا يؤمنون بالحرية، وأشياء من هذا القبيل..

ثم رفع بصره نحوي، وسألني:

- لا شك أنك تفهمني جيدًا.

أومأت برأسي موافقًا، فردّ علي:

- لا أريدك أن تشاطرني الرأي أريد أن أعرف موقفك.

- لـــيس لي موقف، أنت تعرف هذا منذ انضمامي إليكم، وأنا عـــبد مأمور أفعل ما يطلب مني، وأكافأ بجزالة، وهذا يكفيني لكي أكون مرتاحًا اليوم.

عـــاد الـــرجل السمين للضحك من جديد، كأنه كان يسخر حينها من نفسه، أو كأنني ذكرته بشخص يعرفه جيداً ثم راح يقول لي:

- والـــدك لم يكن متعلمًا، ولهذا عندما كان يرد عليّ بمثل هذا الجـــواب "أنا عبد مأمور" كنت أفهمه، والأهم أصدقه، لكن أنت، لقد قرأت سيرتك القصيرة، لم تكن تفكر هكذا..

أجبت حينها:

- ما أهمية ما كنت عليه؟

- لا أدري، لا بد أن له أهمية، إن النقطة التي ننطلق منها مهمة حـــتمًا، وإلا مـــاذا يعني الحاضر من دونها، الحاضر هو دائما الخط الذي سرنا عليه من قبل.

www.mlazna.com-رياح الشرق

- لقـــد كـــان خطأً معوجًا، كنت أعيش ضد قناعات أبـــي، والآن أنـــا أعيش وفق قناعاته، اهتديت للطريق الصحيح، هو هذا الذي أنا فيه الآن..

ابتـــسم هذه المرة، وعاد يحلق فيّ بتلك النظرات التي تشعرك أنه يقرأ محتويات روحك كفهرس كتاب:

- أنت تظلم والدك كثيرا..
- لماذا؟
- لأنك تعتقد أنه كان مجرد دمية في يدنا.
- أليست تلك هي الحقيقة؟
- نعم ولكن الأمر لم ينته كما تتصور.
- انتهى بصورة مأساوية، فَلَتَ عقله ثم انتحر.
- هكذا تتصور الحادثة؟
- بل هكذا وقعت.
- ســـأخبرك يوما ما كيف وقعت الحادثة، ولكن تأكد من أنك مخطئ..

لم أكـــن أعرف لماذا في تلك الفترة كنت أشعر بالبلبلة مع ذلك الـــرجل السمين، ومن جهة أخرى فكرت أنه ربما يمتحنني من جديد، ويـــريد أن يتأكد من أنني صرت مخلصًا بالفعل، وأن تغيري حدث بحق وليس مجرد قناع أرتديه وقد أخلعه في أي لحظة..

هم هكذا يشكون في كل شيء، يظنون دائمًا أن هناك مؤامرات تحاك ضدهم، وكنت أتذكر عمي العربـــي وكلماته المعبرة "لن يعيشوا أبدا في سلام مع أنفسهم، ذلك هو عقابهم في الدنيا".

كان عمي العربـــي يؤمن بأن الإنسان يدفع ثمن جرائمه بطريقة أو بأخـــرى، كان ذلك يريحه حتى لو لم يتحقق أمام عينيه، كان يعتقد

أن السعادة تكمن في تلك الأشياء البسيطة التي يحققها الإنسان فوق ظهر الأرض، وأن الحياة جميلة عندما نتعلم منها التواضع وحب الآخرين. وعندما كنت أستمع لكلام الرجل السمين كنت كثيرا ما أقول "كم كان معه حق هذا الرجل الغريب".

* * *

بالتأكيد لم أفكر في العواقب، وأنا أذهب للكباريه الذي تحدث عنه سعيد بن عزوز ولكنني ذهبت لرؤية المرأة التي صنعت صحرائي الكبرى في الحب، وجعلتني أرحل لأقصى ظلماتي بعدها..

أقنعت نفسي كذبًا أن ذهابي سيكون من باب الفضول لا أكثر، وبالفعل عندما رأيتها لم تهتز شعرة واحدة في فؤادي، فقد شاهدتها جالسة مع أحد زبائن الكباريه بلباس خليع للغاية، ورغم جمالها المشرق إلا أنها لم تبهرني كثيرًا، أو لم أحس بنفس تلك الجاذبية القديمة، كما لو أن زمن الحب انتهى وجاء زمن آخر، إلا أن المفاجأة الكبرى لم تكن هنا، لقد رأيت الرجل السمين يدخل الكاباريه مع بعض حرسه الخاص فاقشعرت خلايا جسمي من الخوف، ولحسن الحظ لم يلاحظ وجودي بالمرة، لقد توجه بسرعة لمائدة رانية مسعودي، وعندما رأيته يفعل ذلك، زادت بداخلي حالة الارتباك، ودارت برأسي عشرات الأسئلة، وفكرت في أمور أخرى عديدة، وأنا أنسج مؤامرة كبيرة تحاك في الخفاء إما ضدي أو ضد هذا الرجل السمين.

قلت في نفسي لابد أن الكلب سعيد بن عزوز قد عرفه بها لينال مني، إنها طريقته الخبيثة في الاقتراب من رجل مهم كالرجل السمين، أو ربما هي من طلبت منه ذلك لأنه بالتأكيد قد تحدث معها في كل شيء

وعرف ما فعلته بها، أو ربما شيء ما يحدث في الجهاز، فما دامت رانية تعمل لصالح سعيد بن عزوز فهي حتمًا تتجسس على هذا الرجل السمين الذي كانت تصرفاته الأخيرة تنم على الكثير من الندامة، والتحسر، مما جعل الجهاز يحذر منه، ويجند رانية لمراقبته.

كل شيء بدا لي حينها ممكنا، سيناريوهات متعددة لشيء واحد سيقضي عليّ أنا قبل رئيسي المباشر، ولهذا كان عليّ التفكير بسرعة، وإيجاد الحل المناسب..

لقد خرجت من الكباريه كمتسلل، وأنا أفتح الباب الخلفي لكي يلتقطني الشارع، وقف سعيد فجأة في وجهي ضاحكًا:

- ماذا تفعل هنا؟

- لاشيء، أنا ذاهب.

- لماذا لا تبقى ونشرب شيئا مع بعض؟

- ليس لي مزاج هيا مع السلامة.

لم أترك له الفرصة كي يكمل الحديث معي ونفذت بجلدي على الفور.

* * *

لم أشعر بالخوف كما أحسست به تلك الأيام، وكان أشد ما يضايقني، ويخيفني هو أنهم سيقضون على الرجل السمين، وأنني لا أعرف ماذا أفعل، هل أخبره بما أعرفه عن رانية؟ مع أنني لو فعلت ذلك لوضعت حياتها في خطر، وحياتي كذلك هل صرت مريضًا بالبارانويا، وأنا الذي يهذي بالمؤامرات لا غير لم يكن عندي جواب، وكنت كلما واجهت الرجل السمين بمكتبه، أو بمسكنه أجدني صامتا وحائرا حتى جاءني الخلاص من شخص آخر.

عـــندما طرق بابـــي ذلك الشاب الأسود قال لي بصوت خشن وصارم:

- إنهم يطلبونك.

ودون حـــتى أن اسأل من هم، خرجت معه، وركبت في سيارته البيضاء اللون على عكس ما ظننت دائما أنهم يحبون السيارات السوداء للتدليل على شيء لا يفهمه عقلي بالتأكيد..

وصلنا لمكان لم أكن أعرف حتى طريقه من فرط ما ظهر لي بعيدًا عـــن العاصـــمة، وفي داخل غابة كثيفة، ورأيت عددا لا بأس به من الحـــرس في كـــل مكـــان تقـــريبًا، وهناك دخلت للقصر الصغير ذي الطابقين، ورأيت مجموعة من الرجال في سن الكهولة تقريبًا جالسين في صـــالون واســـع على أرائك مريحة، لم يقدمني الرجل الأسود لهم لقد اكتفـــى بغلق الباب خلفي فيما سمعت صوت أحدهم يخرج من مكتب مجاور: "هيا معي".

فذهـــبت ناحـــية الصوت حتى وصلت للباب مستأذنا الدخول فـــسمح لي بذلك، ورأيتني في حضرة رجل في الخمسين من عمره قليل الشيب، يضع على عينيه نظارات شمسية سوداء قال لي بلهجة آمرة:

- أجلس.

فجلست..

تركني مع حيرتي لعدة دقائق قبل أن يتكلم معي:

- لقـــد سُـــررنا بعملك معنا، ومن الآن يمكن أن تعتبر نفسك واحدًا من الجهاز.

شكرته، وأنا مندهش من خبر كهذا، كنت أظن أنني الرقم الذي سيقـــضى عليه كملف قديم لم يعد صالحًا للاستعمال فإذا بـــي أترقى إلى هـــذه الدرجـــة العظيمة، وخاصة أنني كنت أصغرهم سنا فأغلبهم

كـــان قد تجاوز الخمسين، كما كنت الأحدث في الجهاز الذي لم يكن لـــه حـــتى تسمية يمكن أن تؤكد وجوده، وللحظات ظننت أنني أتخيل فقـــط، وأن هـــذا الذي أعيشه ماهو إلا كابوس سأستيقظ منه في أي لحظـــة، فكيف يمكن أن يكون هذا ممكنا، لولا أن منحني الرجل خاتما من ذهب قائلا:

- هـــذا الخـــاتم هـــو الذي سيجعل الآخرين يعرفون مقامك بيننا.

عـــدت لـــشكره لكنه نصحني بعدم الشكر، وأضاف بكثير من الصرامة والجدة:

- لقد سارت الأمور بيننا بهذا الشكل منذ أن تأسسنا، وأصبحنا فاعلين على أرض الواقع..
- هل هناك شيء ما أستطيع فعله الآن؟
- نعم شيء واحد فقط، ويكتمل كل شيء، الأمر صعب جدًا، ولكـــن يجب فعله، لقد اتفقنا على أنك الوحيد الذي يستطيع القيام به..
- أنا في الخدمة.
- أعـــرف أنـــك منضبط، لقد جربناك في أشياء كثيرة، وأديت عملـــك بكل تفان ونجاح، نتائجك مبهرة ولهذا الجميع وافق على ترقيتك..
- مـــا المطلـــوب مني تأديته يا سيدي، أنا مستعد لتنفيذه على الفور..

نظـــر إلى كومة الأوراق التي كانت مبعثرة فوق مكتبه ثم أخرج صورة، وقدمها لي:

- نريدك أن تصفي هذا الشخص..

www.mlazna.com-رياح الشرق

لم يطلب مني من قبل أن أقتل أي شخص، كنت أعرف أن المسألة مسألة وقت، ولكن أن أقتل، نعم يمكنني أن أتخيل نفسي دراكولا، أو في صورة آكل لحوم بشر، ولكن قاتلاً، كان ذلك شيئًا لم يخطر ببالي، فالقتل لم يكن أبدا ضمن أجندتي العملية، ومهامي السابقة، ثم كانت المشكلة في الصورة، صورة ذلك الرجل الذي سأنفذ فيه حكم الإعدام، يا لها من مهمة فظيعة..

* * *

عدت إلى الوراء قليلا، استرجعت ذكرياتي الطفولية القديمة، علاقتي بوالدي، مشاعري المضطربة، وأنا مراهق، حبي الجنوني لرانية، مشاحناتي مع السعيد بن عزوز، علاقتي بعمي العربي، الأشياء التي عشتها بدم القلب، وماء الحياة، ورحت أتأمل فيها كما يتأمل رجل سيفارق الحياة لحظاته القديمة، وقد جمعها كحزمة حطب وراح يحرقها واحدة وراء الأخرى..

للحظة شعرت أنني انتهيت، فهذه الترقية لم تكن ترقية، ولكن آخر اختبار لقياس درجة ولائي لهم، لمعرفة إلى أي حد يمكنني أن أكون وفيا لهم بالفعل، وما كان يبعث بداخلي رجفة القلق والخوف هو أنهم قد يصفونني أنا أيضا بنفس الطريقة، فلم تكن بحوزتي أي ضمانات أنني سأنجو، وكانت تلك هي المشكلة الكبرى وهي أنني لا أملك أدنى ثقة فيهم، أقتل ذلك الرجل، ثم ماذا بعد؟ أصبح فردًا من تلك الجماعة الغاضمة والمريضة، والتي تعيش خلف ستار من حديد، ولا يعرفها أحد من الناس، أصبح واحدا منهم، رقما هاما مثلهم تقريباً، شعرت فجأة أنني مسيج بكل تلك الأسئلة وبدا لي العالم ضيقا جدا على عكس ما ظننته سيتسع إلى ما لانهاية وأنا أضع قدمي على أرض خطرة كهذه الأرض السامة التي تملكها الجماعة،

تحسرت على نفسي ثم على كل أولئك البؤساء الذين يقتاتون من الخيبات اليومية وهم لا يعرفون حتى بوجود جماعة بهذا الشكل المرعب، بهذه الصورة المخيفة، ولو عرفوا ماذا كان سيحدث؟ كنت متأكدًا من أنهم لن يتحركوا، وأنهم سيقتنعون بما يتركونه لهم من فتات ليأكلوا، ويتزوجوا، وينجبوا بنينا وبناتًا دون أن يفكروا في أبعد من ذلك، ذلك قدرهم دون شك، أن تعيش الجماعة فوق وهم تحت.

كنت أعرف أنه آخر اختبار، وأنني لو اجتزته لفزت بالفعل، أي لوصلت لتلك القمة التي يتهافت عليها آخرون من طينتي مثل سعيد بن عزوز، لكأن الحكمة غريبة، أو خبيثة فهاهو السعيد يفعل كل شيء من أجل ذلك فلا يصل ويبقى في المنزلة السفلى التي انطلق منها، أما أنا فها ألحق بهم، ولكن بأي ثمن؟ هل يقبل الإنسان أن يدفع ثمنا كهذا من أجل وصوله لتلك المرتبة التي ما بعدها مرتبة أخرى، لكن المشكلة أنهم كانوا يطلبون مني قتل واحد منهم، شخص كان من بين جماعتهم تلك، وقريب جدًا إليّ، بل أقربهم إليّ، لقد شرح الرجل الذي يضع نظارات سوداء ذلك لي بقوله:

- إنه محنك، ولو بعثنا شخصًا آخر لتنفيذ العملية لعرف بسرعة ولهرب، أنت هو الشخص الوحيد الذي يثق فيك..

لم أستطع أن أسأله عن السبب: ماذا فعل حتى قررتم تصفيته؟ لكنه أخبرني حينها:

- لقد كبر في السن وبدأ يخرف، بدأ يحرك بيادقه في الشارع للثورة علينا، لابد أنه جن، أو أن قرب الرحيل جعله يفكر بطريقة جنونية.

كان يقصد ببساطة أن ضميره صحا فجأة، وأن هذا غير صالح للجهاز..

لم أعد أؤمن بالضمير، الفكرة التي يمكنني أن أموت من أجلها وأنا شـــاب، لم تعـــد تعني لي الكثير إنها فكرة مخترعة فقط لخلق الرعب في نفوس أولئك الذين لا يجب أن يقتربوا من الفردوس الأرضي.

وافقت على تنفيذ المهمة، أعطيت وعدا بذلك، شكرت الرجل ذا الـــنظارات الـــسوداء علـــى الثقة، تركت الخاتم الذي منحني إياه في جيبـــي، وذهبت إلى بيت الرجل السمين..

أذكر عندما دخلت عليه، كان متمددًا على أريكته الفخمة تلك، وهـــو يتـــناول الشاي، ويقرأ كتابًا لم أتبين عنوانه، ثم عرفت، بعد أن نفذت العملية، أنه كان مصحفا شريفاً. رمقني بنظرته الثاقبة، وشعرت أنه قرأ ما جئت أقدم عليه، لم يقل لي شيئا، بقي يقرأ ما في الكتاب، لم يرتعش ولم يصدر منه شيئا آخر، حتى أتم ما كان يقرأه ووضع الكتاب بعد أن أغلقه وقبله على طاولة صغيرة بقربه، ثم التفت إليّ:

- إذن أنت من سينفذ العملية.

للحظة ظننت أنها مزحة من طرفه، أو سخرية يداعبني بها كعادته في الشهور الأخيرة كتعبير منه عن تعاطفه الصادق معي، أو شيء آخر غير ما أنا قادم من أجله بالفعل، ولكنه واصل متحدثا:

- صدقني لو قلت لك إنه أحسن لي ألف مرة أن تقتلني أنت من أن يقتلني أي حقير منهم..

لم أقـــدر علـــى سؤاله: لماذا؟ ما هذا الكلام في حضرة شخص ســـينفذ حكمًا قاسيًا عليه؟ وهل هو استعطاف، أم ماذا؟ كنت أعرف أنـــه يـــستطيع أن ينادي على بعض حرسه في الخارج فيأتون بسرعة ويـــنقذونه مـــن جريمتي التي سأرتكبها، أو عل الأقل يقضون عليّ أنا حيـــنما ينتهي كل شيء، لكن الرجل السمين لم يفعل ذلك لقد راح يكلمني بكل صدق:

www.mlazna.com-رياح الشرق

- الثورة ستقوم في هذه البلاد، هُم يعرفون ذلك بلاشك، حذرتهم من التلاعب بالدين، قلت لهم أتركوا هذا الأمر، ولكنهم لم يسمعوني، والآن لست أنا من سيحرك هذه الخيوط لتنفجر القنبلة ولكن أناسا من جلدة أخرى، وطينة جديدة، هؤلاء سيحاربون حتى الموت، ولن يرحموا أحدا سيشعلونها نارا أبدية قاتلة وقاسية على الجميع ولن ينجو منها أحد..

لم أكن أفهم عما يتكلم، وعن أي ثورة يتحدث، ومن هؤلاء الذين يقصدهم، وقد استقرت الأمور في الثمانينيات إلى الكثير من اليأس والإحباط..

شعرت أنه كما لو كان يسمع ما يدور بداخلي:

- اليأس والإحباط هما اللذان جعلانا نفجر الثورة وننتصر، وهما اللذان سيقلبان موازين الوضع اليوم، هم لا يسمعون، لم يعد أحد يسمع، لقد أعمتهم السلطة والقوة والمال على السماع لأي شيء، أما أنا فلقد قمت بما يجب القيام به، لقد اتصلت بمن سيفجر الأمور لاحقًا وهم يعرفون كيف سيهدمون كل شيء على رؤوس هؤلاء الأوغاد..

أخرجت مسدس الماغنوم بعد أن زودته بكاتم الصوت، لكن الرجل السمين بقي يتحدث إليّ كأن الأمر غير مهم:

- لقد سألتني مرة عن والدك وقلت لك إن حكمك قاس جدًا عليه، والدك فعل شيئًا أخيرا ليهرب من هذا السجن، لقد قام بكل ما طلبنا منه فعله، لكن عندما أنبه ضميره، وأحس بأنه لا يخمي بلده، بل جماعتنا. ادعى الجنون ليفلت من قبضتنا، لقد انطلت حيلته على الجميع إلا عليّ لقد تتبعته بشكل

دقيق، وعرفت أنه لم يكن مجنونًا بالمرة، بل كان فقط يمثل هذا الدور، لقد قضى سنواته الأخيرة سعيدا للغاية، وعندما رأيت سعادته تلك شعرت بالغيرة منه، منذ تلك السنة، وأنا أتساءل كيف يقبل شخص أن يعيش مجنونًا على أن يكون معنا، وكان الجواب الوحيد الذي خطر في بالي بعدها هو الحرية، كان والدك يريد أن يكون حرا حتى لوكان ثمن الحرية هو دعاء الجنون، ثم هل تعرف؟..

صمت قليلاً، وهو يقوم بابتلاع ما بقي في كأسه من شاي:

- عندما واجهت والدك بمعرفتي بعدم جنونه بكى فجأة وقال لي: "أرجوك أريد أن ألهي حياتي وأنا مرتاح الضمير".

ثم واصل كلامه بحزن لم أره من قبل في عينيه:

- لقد أعطاني هذا المصحف، وقال لي: ربما تؤثر فيك هذه الكلمات فتتغير..

عاد للصمت من جديد ليقول لي وقد وجهت مسدسي نحو رأسه:

- شيء أخير فقط، والدك لم ينتحر، أنا من دفعه من الطابق العلوي لينفجر على الأرض، لقد مات سعيدًا على ما أظن.. يمكنك الآن أن تطلق عليّ رصاصة رحمتك فمن جهتي أنت لا ترتكب جريمة أنت تنتقم لوالدك.

وهنا أطلقت رصاصاتي عليه.

* * *

حينما خرجت من بيت الرجل السمين وقد خلفت ورائي جثته، وهي تسبح في دماءها التي سالت بغزارة حتى أنني ظننت أنها ستغرق

الغـــرفة كلها لم يتبين أحد ما فعلت، ولم أشعر بما يشعر به القاتل وهو يرتكب جريمته الشنعاء، بل لم تأتني هذه الأوصاف حينها، كما لو أنني لم أرتكب أي شيء، كما لو أن هذه الجريمة لم تكن جريمة، فقط قتلت شخـــصا طُلب مني قتله، نفذت أمرا لا نقاش فيه، حققت ما يجب أن أُحققـــه، وأنني في حالة غريبة ليس فيها لا سعادة ولا حزن، ولا حتى إرضاء لشهوة دفينة في القتل.

كثيرا ما قرأت عن تجربة القتل الأولى في حياة أي قاتل، لقد قيل أنها الأصعب، بينما كانت الأسهل بالنسبة لي، ولم أفهم لماذا ربما لأنني لم أرد أن أفهـــم، وربما لأنه لم يكن مُهمًا الفهم بقدر ما كان الفعل في حد ذاته ضروريًا، ومميزا، وذا قيمة في حد ذاته.

ثم كانـــت العتمة تغطي كل مساحة الضوء، كنت أراه، وبالكاد أراه، كان صوته يخترق طبلة أذني، ولكنني لم أكن أسمعه، كانت الرياح تهب من هناك، لست أدري من أين بالضبط؟، وتطرق زجاج النافذة، ولم أكـــن أستمع لها، كان رأسي في قلبـــي، وقلبـــي في زاوية معتمة، وكـــان كـــل شيء ملفوفًا بتلك العتمة التي لا أعرف من أين نـــزلت بدورها، فقط كانت تحجب عني الوجه، أقصد القلب، أقصد اختلاط الإنـــسان بالإنسان، وما قد يخلقه ذلك من توتر، وحيوية، وإنسانية لم تعـــد فيّ، ولم أعد أقبلها أن تكون فيّ، حالة غامضة، وقريبة من حالة الجـــنون، مع أنني لم أكن مجنوناً، ولا سيء الطوية، كنت أنفذ الأوامر، وتحـــت سلطة تأثير أقوى من كل جاذبية أخرى في هذا العالم. لقد بدا الأمر سيئا فقط بمذاق لا طعم له، كأنك تعظ على الماء فيسيل، كأنك ترمـــي بنفـــسك مـــن علو كبير فلاتنكسر، ولا يساورك بعدها أي إحساس، تغفو يقظا، تستيقظ غافيا، يختلط الزمن، وهو يلعب بلامعنى الحياة في تكسرها النهائي.

www.mlazna.com-رياح الشرق

وعـــندما جلست لوحدي، عاد الضوء قليلاً، بخيوط نادرة نفذت من الخارج، وتسللت للرأس أولا، استفقت على حقيقة أنني قتلت ذلك الشخص، لكن دون تأنيب ضمير، لم يحدث ذلك قط، وبعدها جاءت الـــشمس، خـــيوط الـــشمس في تلك الظهيرة الحارة شعرت بها دفعة واحـــدة، وتملكـــني البرد، برد حمى راعشة، ورحت أتجمد في مكاني، تجمـــدت وتقوســـت، تلاحمت بكياني الذي شعرت به فجأة منفرطًا وهشاً، وفي حالة ذعر، وراحت تلك الأسئلة الغريبة تغزوني: ماذا فعل لي ذلـــك الشخص لأقتله؟ لماذا نفذت تلك العملية؟ لكنها كانت مثل خواطـــر حـــالم، نـــائم، تؤرقه، ولا يعطي لها قيمة، فتحت عينيّ على السقف، على الأثاث المحيط بـــي، على البرودة التي تحتويني، وكنت لا أزال شبه نائم، شبه يقظ، في حالة ما بين وبين، منـــزلة بين منـــزلتين، في وضـــعية لا تفـــسير لهـــا، حتى سمعت رنات الهاتف، مرتين، ثلاث فقمـــت، اتـــصل بـــي الرجل الذي يضع نظارات سوداء على عينيه، وقال لي: "برافو" فلم أجد ما أخبره به، وشكرته بدوري على الثقة التي مـــنحها لي، ثم ودعني وقال إن المكافأة ستكون سمينة هذه المرة بحجم سمنة ذلك الرجل الذي قتلته.

كـــنت في غنى عن المال حينها، كان عندي منه ما يكفي وأكثر، وضـــعيتي تحـــسنت أكثـــر مـــن اللازم، ساعدت كل من أقدر على مـــساعدتهم مـــن أفراد عائلتي، وسفرت أمي عدة مرات للحج، حيث ذهـــبت مع أحد إخوتي، وحتى هذا لم أدفع فيه سنتيمًا واحدًا، كانت الجماعـــة تتبرع بالعشرات من الجوازات المخصصة لذلك، كانت أمي تعـــيش أيامها الأخيرة ولا تحلم بشيء آخر غير رؤيتي متزوجًا، فكنت أســـخر من طلبها، وأنا أتساءل كيف أتزوج، ولماذا؟ يكفي أن والدي عذبـــنا بإنجابـــنا في هـــذه الحياة وداخل هذه البلاد، أما أنا فلن أكرر

المهزلة، ولن أعطي للعالم أطفالاً يصبحوا في لحظة من تاريخهم مصاصي دماء، أو من فصيلة آكلي لحوم البشر، أو قتلة مثلي..

تركوني لأكثر من أسبوع وحيدًا لا أبرح البيت، دون أن يطلبوا مني حتى الحضور لاجتماعهم الأسبوعي، شعرت براحة طوال تلك الأيام التي لم أقم فيها بأي شيء، كنت أجلس في الغرفة، أتأمل السقف، وأحيانا أخرج إلى الحديقة، وأستمع لزقزقة العصافير، وصار العالم كله يبدو لي بلا معنى، وبلا قيمة، يمكن تحقيق ما نريده بضغط زر فقط، بإطلاق رصاصة واحدة فقط، وكل شيء يكون كما نريده، أو كما يريدونه أن يكون.. مجرد سديم، مجرد فراغ رهيب محشو بالأوهام، وبأمور لا أفهمها..

خلال ذلك الأسبوع زارني أخي في بيتي، وعندما رأيته لا أعرف لماذا ارتعبت من زيارته، خفت منه، أو خفت من عينيه بشكل خاص، لقد كان دائمًا يملك تلك النظرة المؤثرة، والحزينة، والمشفقة، وكان يستطيع من خلالها أن يؤلمني، لقد وقف إلى جانبي، وأنا شاب، ودافع عني حينما استوجب الأمر دفاعه عني، وكان يخوض معارك هامشية لحمايتي، وكان يبدو دائما كمن يضحي بأغلى أيام حياته من أجل حياة العائلة، ومن أجلي أنا بشكل خاص، ولهذا استفزني حضوره، إنه يثير ذلك الأسى الغامض بداخلي، ذلك الشعور المبهم بأنني صرت إنسانا آخر، وحيدًا، ولاتعنيني علاقاتي العائلية التي صارت من جهتي شكلية فقط، مجرد ديكور أؤثث به من حين لآخر وحدانيتي تلك، لم أعد منهم، لم تعد عائلتي هي عائلتي، وصار لي عالمي الجديد، المليء بالرعب، وبالمغامرة، وبالتحكم في دواليب الأشياء، وفي قيادة الآخرين نحو حتفهم..

تساءلت عن سبب زيارته، تركته يدخل للبيت، ويبقى طويلاً يتأمل شساعته، ووحدانيتي فيه، وقال مبتسمًا:

- أنا لا أفهمك، لماذا لا تعيش معنا؟

- لا أدري، كنت دائما أؤثر أن أكون وحيدًا.

- بالفعل، ولهذا كنت أظنك ستصبح فنانا، أو كاتباً، لقد كنت تحب القراءة كثيرا.

- نعم كنت أحبها.

- والآن ماذا تفعل بحياتك؟ حتى أنا أستغرب، من أين لك بكل هذه البهرجة والمكانة، وكل هذا النفوذ؟

أصمت، ولا أجيبه، كنت في زاوية من نفسي أعرف أنني بلغت مرتبة لن يعرف عنها أخي أي شيء، ولن يفهم دواليبها وأسرارها مهما فعل، وأنهم لو رأوا فيه ما رأوا في لما جندوني أنا، وتركوه هو، يا للتعاسة، كنت أنا الذي يرفض أي تنازل أو تخاذل فإذا بي أول من يتنازل، ويدخل الصف.

واصل يتحدث:

- أقصد يجب أن تكون واعيا بما تقوم به.

وأضاف بعد أن جلس على الأريكة الجلدية:

- لقد كنت بالرغم من كل شيء سعيدًا بك قبل هذا.

- ماذا تريد أن تقول لي؟

- المهم، أعرف أنك تعرف ماذا أريد أن أخبرك به، هناك أشياء أهم في الحياة من أن نكون مجرد لصوص، وقتلة، ومجرمين حتى لو كنا مع الجهة الآمنة في المجتمع.

كانت التهمة واضحة وهو يسددها لي، ولم تكن بحوزتي أي قدرة لأقول له كف عن هذا الحديث، من تكون أنت حتى تعطيني هذه

الـــدروس؟ ولمـــاذا بقـــيت طـــوال حياتك تغطي على والدي أفعاله الإجـــرامية؟ ولماذا قبلت أن تخلفه في منصبه؟ وهل لمثل هذا النوع من الـــتفكير الأخلاقي أي أهمية في راهننا اليوم؟ كنت متعبًا من المواجهة العلنية معه، عاجزا عن الكلام، فتركته يكمل:

- والـــدنا لم يـــصب بالجنون في أخريات أيامه، ولكنه تظاهر بـــذلك، لقد أخبرني بسره، واقتنعت بما فعله، لم يكن حينها ممكـــنا الحـــديث معـــك في هذا الموضوع، لقد كنت تبدو كجزيرة مغلقة على نفسها، وكنت صغيرا، ولم يكن أحد منا يـــريد إشراكك في هذه الأمور الحزينة، لكن الآن عليك أن تعـــرف أن هـــذا الطـــريق هو الذي قضى على والدك، ولن يقودك لما يمكن أن تفخر به مستقبلاً.

اضطررت فجأة للرد عليه قائلا:

- أعـــرف هذه الحقيقة، لكن أنت من يتكلم بهذا الشكل، أنت الـــذي كـــنت تحيًا وتتنفس بأوامره، أنت الذي عشت كل شـــبابك تحت ظله اللعين، أنت الذي تعرف كل الخبايا التي بقيت تعذبني لسنوات طويلات دون أن تشركني فيها، والآن تـــرغب في محاكمتي، وعلى ماذا؟ على أنني ارتقيت أكثر من والـــدي مرتبة، وأنني صرت واحدًا منهم، هؤلاء هُم الحقيقة الوحيدة في هذه البلاد وغيرها مجرد نظريات وأكاذيب جميلة.

رد أخي بكل وقار حينها:

- أفهمك جيداً، لقد قمت بدوري كما يجب لقد كان الاتفاق أن أضـــحي من أجل العائلة لا غير، لكن لم أرتكب أي جرم في حـــق أحد، وضميري مرتاح جداً، حتى هم لم يطلبوا مني هذا، لقد كانت مجرد وظيفة.

www.mlazna.com-رياح الشرق

- مجرد وظيفة.

- نعـــم عمل نقتات منه، وظننت أنني تركت لك الفرصة كي تعيش وتتعلم بعيدًا عن كل هذا الجحيم، كنت أظنك ستبرع في فن من الفنون، تسافر إلى أرض أخرى، تعيش حياة مختلفة عن حياتنا هنا، ثم فجأة أسمع بك في تلك المنظمة..

قاطعته بسرعة:

- أرجـــوك، لست بحاجة لموعظتك، أنا الآن في مكان لن يصله ســـكان هذا البلد حتى لو قبلت أرجلهم رؤوسهم، وخلاص هذه هي حياتي..

تنهد بحسرة، وقال يختم كلامه معي:

- لقد قال لي والدي مرّة: "الروح هي الإنسان وعندما يفقدها يفقد إنسانيته".

ثم قـــام من على الأريكة، وسار حتى ناحية الباب، وخرج، فيما غرقت أنا في حزن شديد القتامة، لم أعرفه منذ وقت طويل، ولم أعشه بتلك الحدة أبداً.

* * *

دخلت من يومها في ذلك المستنقع الكبير..

يجـــب أن أعتـــرف بأن حياتي تغيرت جذريًا بعدها، صار هناك شـــخص آخـــر يـــتكلم بـــدلا عني، ينهض صباحًا ويقوم بمهامه التي يـــستوجبها مقامه الجديد ثم يعود للبيت، طلقت حياتي السابقة تطليقاً نهائيًا، أو ظننت ذلك، أخذت الأشياء شكلاً يقترب من عالم الصمت والعـــزلة، شـــكل من وضع قدميه في النار محترقًا بها، وصار هو النار بعيـــنها، النار التي يقتات بها، وتقتات منه، والنار التي بها يعيش ظلماته

الـــسوداء دون أن يخشى عتماتها، وفي تلك المدينة السرية عشت أقصى الملـــذات لكـــن بقي لتلك الملذات طعم مختلف، طعم من لا يتعب في تحقـــيقها، ولـــيس من يجد ويكد من أجل الوصول إليها، ولهذا صرت أحس أن كل ما كنت أفعله لم يكن له مذاق، أو إن صحت العبارة لم يعـــد لي أي إحساس بالنشوة الحقيقية التي يشعر بها أي شخص بسيط مـــن عالم الناس البسطاء، كان كل ما أرغب فيه أحصل عليه، وصرت قـــريباً جدا من تلك الجماعة القوية والضاغطة، كانوا في الحقيقة عشرة أشخاص لا غير، تحتهم عشرات، تحت العشرات المئات، وتحت المئات الآلاف، كانـــت ترتيبهم ترتيبًا منسجما، لم ألحظه من قبل، وأنا مجرد عضو بسيط يتسلق جدارًا بلا سُلم، يصعد من رُتبة لرتبة، والآن صاروا يـــرونني واحـــداً مـــنهم، رغم اختلافي عنهم بعض الشيء، وصاروا يتكلمون معي بأدب جَم، ولم أكن أجد مع ذلك مكاني بينهم، كنت أرقـــب حـــركاتهم وتـــصرفاتهم، وأشاهد عالمهم عن قرب، وأحاول باستمرار المقارنة بينهم وبين الآخرين، كانوا مختلفين، ليسوا مثل غيرهم بالتأكـــيد، لهم عاداتهم الخاصة، وأفكارهم المُحددة، وتعصبهم الشديد، كـــنت أراهم يسخرون من كل شيء ولاشيء، ويبتسمون فيما بينهم وهم يخططون للمرحة الراهنة والمرحلة اللاحقة، هم يضعون بيادقهم في كـــل مكان يريدونه حتى يضمنوا ولاء الجميع، وعيونهم تتلصص على أي شخص يشتبهون فيه، ولم يعودوا يقتلون أحدًا، والقتل جاء لاحقاً عـــندما تعقـــدت الأحداث التي لم يعرفوا كيف يسيرونها وفق أهوائهم الغـــريبة، وذهـــبت المشاكل لأقصى حدودها، لقد تغير الزمن فلم تعد تلـــك الأمور تنفع، وكانوا يشعرون بنقمة الشارع، وغضب المجتمع، وظـــروفه المـــزرية التي يغرقونه فيها، ويصرون على أن يبقى متحملا مـــساوئها لوحده، وأحيانا يتبجحون بسب وشتم على هؤلاء الكلاب

التي لا تشبع، وتريد أن تقاسمهم الربوع والممتلكات، متهامسين بكيد، ومستصغرين كل من يناصبهم العداء، أو يثور في وجوههم، وحتى الرجال الذين طردوهم من البلد، وجعلوهم يعيشون في المنافي البعيدة، تلك القلة التي كانت تستغل وجودها في الخارج لتقول الحقيقة، التي تؤكد على أن مصير البلد هو الهلاك لا محالة إن استمر يسير على هذا الطريق الغامض والملون بدكنة السواد، وغياب شرفة للحلم. حتى إذا ما انفجرت البلاد، واهتزت بثورة عارمة من طرف الشباب الغاضب، سمعتهم يتكلمون فيما بينهم دون أن يناهم أي ذعر، كانوا يكتفون بالقول: يجب أن نحرك بيادقنا في اتجاه جديد. وكان لهم ذلك، يخططون بسرعة وهم يعرفون من أين تبدأ المهام الخطيرة، فنجحوا دائما في إخماد الثورات، ولأول مرة أسمع بالشيخ أسامة يلتقي أحدهم ويخبرنا أنه في الخدمة، وسيفعل كل ما يطلب منه، وبعدها عرفت، غير أن ما عرفته كان مخيفًا للغاية، ولم أجد ما أفعله، وبشكل لاواع تقريبًا، وجدتني من جهة ضدهم، أحاول أن أنقل بعض الأخبار من عالمهم لعالم الناس الذين يعيشون تحت الأرض ربما أسوة بالرجل السمين الذي مات، وهو يأمل في انفجار حرب قاتلة لن ينجو منها أحد، وربما لأنني في جانب مني لم أكن راضيًا عن كل ذلك، حاولت الاتصال ببعض الناس الذين يعيشون في عالمهم السفلي دون أن يدركوا ما يدبر لهم في الخفاء، لكنهم لم يثقوا فيّ هم أيضاً، ولم يستمع إليّ أحد، وشعرت أنني غريب عن الجميع، وأنه لا يمكنني أن أكون بينهم، وبطبيعة الحال لم أكن أعرف لماذا كنت أرغب في إخراج ذلك السر للآخرين، مع أنني كنت في صف الجماعة التي أعيش معها، صف الذين يملكون تلك القوة الغريبة لجعل كل الناس مفسدين، أو هالكين، والوحيد الذي استطعت التكلم معه كان صديقي عدنان الذي ترك البلد، وهاجر إلى فيينا ثم

www.mlazna.com-رياح الشرق

استقر في حنيف، أذكر أنني التقيت به هناك، وسألني أسئلة عن البلاد ومصيرها فأخبرته بعض ما أعرف وليس كل ما أعرف، فقال محتجًا: كيف يلعبون بمصير شعب بهذا الشكل؟ فأخبرته أن لهم سيناريوهات جاهزة لكل وضع، فلم يصدقني وراح يدندن بكلام كنت في سابق عهدي أول ضحاياه: "شعبنا لن يسكت وسترى أن التغيير الحقيقي سيحدث، ثورة الشباب ليست إلا البداية" ففهمت أن هؤلاء المثقفين لا يفهمون شيئا، لا في لعبة الواقع، ولا ما يختفي وراء الستار، والحمد لله أن الجماعة لم تعرف ما تحدثت معه فيه، وإن سألني الرجل الذي يضع نظرات سوداء عن علاقتي بالدكتور عدنان، فتعجبت قليلاً، كيف عرف موضوع لقائي به؟ ولكن سؤاله الثاني عن إمكانية استخدامه في بعض الترتيبات، قلل من مخاوفي، وقال لي إنه معروف بخبرته الاقتصادية، وسألني: ما رأيك لو نعرض عليه أن يكون وزيرا للاقتصاد وينفذ ما نريده؟ فقلت له إنه فنان عدمي أكثر منه جامعي موضوعي، ولن يفعل أي شيء إيجابي لصالح الجهاز، وسيكون مزعجًا لنا، فصمت، ثم راح يسألني عن علاقتي به، فحكيت له أنه صديق طفولة، ومن أبناء الحي الذي ولدت فيه، وأنني زرته في سويسرا لأستطلع على أخباره فنصحني بأن أكتب وأوثق أي زيارة أقوم بها لأي شخص، ففعلت ذلك.

وبينما بدأت المناوشات تحدث كنت أراهم يضحكون متسلين بما يدور على ساحة الواقع، لقد كان كل شيء يحدث وفق ما رسموه، ولكل وحد من بيادقهم دوره، والشيخ أسامة يصيح في أكبر المساجد أن الجهاد قادم، فيزداد ضحكهم، وفتنتهم بأنفسهم وقدرتهم على تسيير الأمور نحو ما يريدون، حتى إذا ما نشبت الحرب القاسية، والتي دامت عشر سنوات، استقر الأمر واستتب لهم، لقد صار كل شيء بيدهم، ولسان حالهم لا

يكشف عن الترديد: لن ينهض بعد اليوم أحد.. لقد هزموا أقوى موجة غضب تاريخية قام بها أولئك المتدينون البؤساء الذين حلموا بالجنة والحوريات، ولم يأخذوا من جهادهم إلا القهر والذل، والعذاب الشديد.

* * *

عندما نشبت الحرب وجدت نفسي في قلبها، اختلط عليهم الأمر في البداية، ثم سرعان ما لعبوا أوراقهم الرابحة، استغلوا كل الفرص التي أنشأتها تلك الحرب، الناس تتقاتل، وهم يحصدون الملايين، ويدفعون الأموال للتعفن أكثر، ثم طويت صفحة العشر سنوات بسرعة، وساد الصمت، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي، لكن قوتهم زادت، وشبكتهم توسعت، وأحلامهم لم يعد يقهرها شيء آخر غير زمن الموت الطبيعي.

بقيت ثابتا في ذلك المكان، قربت مني سعيد بن عزوز الذي شعرت أنه جزئي الأسود الذي أستطيع من خلاله أن أحمي ظهري، ومكانتي، وأن أحقق انتصاراتي التي يطلبونها مني على أرض الواقع، ورغم نقمته علي، وكراهيته لي إلا أنه كان صبورًا جدا معي، ومثابرًا مخلصاً على إرضائي، ومتزلفًا عنيدا في التقرب مني، وكان يقبل حتى أن أبصق في وجهه إن ثرت وغضبت منه، وأوبخه كلما يحلو لي ذلك بسبب أو بدون سبب، وأفعل به ما أريد، كان دميتي هو الآخر، مثلما كنت دمية الآخرين، كنت بحاجة لهذا النوع لأحكم، وأفرض سيطرتي، وأجلس على عرشي ذاك، ولم يعد يخيفني شيء، صرت مثل ذلك الرجل السمين الذي غدرت به، وقتلته، أفعل ما كان يفعل، وأقول ما كان يقول، وآمر بما كان يأمرني به، لا شيء جديد، لا شيء تغير، هكذا كانت تسير الأمور، وهكذا كانت تنجح.

* * *

في الليل عندما كنت أريد النوم، كانت وساوسي تكبر، وأرقي يتضاعف، ولم أكن أجد السبب المقنع لذلك، أو كنت أعرف أن وضعيتي الجديدة كانت تحبطني قليلا، وكنت بين حين وحين أخرج من فيلتي وأترك حرسي، وأنزل إلى حي بلوزداد، حيث كنت أمرح وأسرح وأنا طفل، أتفقد المباني والذكريات، شاعرًا أن الحنين لا ينقذ الماضي، وأن ذلك الزمن قد ذهب إلى لا رجعة، وأنني أعيش في زمن لم يعد له وجه، أو وجهه صار غامضًا ومتربًا، زمنا كئيبا للغاية ومليئاً بالسموم.

أدخل بيتنا القديم وأتفقده، منذ توفيت الوالدة لم أعد إلى هنا، لم يعد يهمني رؤيته خلال تلك السنوات، فالحرب التي نشبت أخذت مني كل الوقت، والجهد في التخطيط والتدبير، وحتى في الاستنطاق والتعذيب، أنا الذي ظننت أنني لن أصل لهذا الدرك الأسفل من الإنسان، فعلت ما فعلت، كان الرجل ذو النظارات السوداء يقول: هكذا يصبح الرجل رجلاً عندما يقبل على التحديات الجسام، فكنت أفعل ذلك بروح ميتة، وقلب عقيم، وجسد لا يرتجف، وكنت بقدر ما أمعن في تعذيب الآخرين أُمعن في تعذيب نفسي، كانت روحي الميتة تنهض من موتها الداخلي وتصرخ، وكنت أشعر بذلك الصوت المدوي يكسر جدران العادة الأليفة للقتل اليومي، لكن بعدها لم يكن يحدث شيء فأحلو إلى تلك العزلة الكئيبة بيني وبين جدران غرفتي، أمسك عن الكلام والتفكير، وأشرب قدر ما أستطيع، وأحيانا كان ذلك هو أكثر ما أستطيع تحقيقه مستسلماً لحالة من الغيبوبة الطويلة، والنسيان الكبير، مستغرقاً في تلك العتمة غير الواضحة، ونشوة الرأس المذللة لكل المآسي، والفاتحة الأبواب لكل الكوابيس.

يوما بعد آخر صارت حياتي شبحية، وصرت أحيانا أشعر بأنني غير موجود، وأغرق في ذاكرة منتهية، وأنتفي في جغرافيا غير مرئية،

وأمض ولا أمض، وأحلم بقطرات قليلة من الدموع، حتى يوم توفيت والـــدتي لم أبك، رأيت الجميع يذرفون الدموع إلا أنا بقيت في مكاني أرقبهم يحملون ذلك الجسم الهش، الرقيق الذي غادرته الروح ويضعونه داخل تلك الحفرة القصيرة ثم يرمون عليه التراب، وكان الأمر كله يبدو وكأنـــه شيء لا علاقة لي به، شيء لا أفهمه، ولم أكن لأفهم الموت، كان هو اللغز الذي يتبدى لي خارج كل وعي ممكن، إنه القوة الحقيقية التي لا ينفع معها لا التعذيب، ولا المال، ولا الجاه، ولا أي سلطة مهما عظمت، أعطوني دواء للموت، وأنا سأصبح أكبر جبار في هذا العالم..

زاد مـــوت عمـــي العربـــي خلال سنوات الحرب من مضاعفة إحـــساسي بـــالأرق، وبالطبع، أو كالعادة لم أذرف دموعاً عليه لكن قلبـــي ارتعش، أحسست بأنني فقدت شيئا مني ظل على مر السنوات يحـــتل مكانة خاصة فيّ، ولعل ما زاد من مضاعفة هذا الإحساس كوني لم أره لـــسنوات، لقد كنت أزوره على فترات متباعدة، كان يفهمني بحنكـــته، وتجربته الكبيرة في الحياة، لا أدري كيف، لقد أخلص لما آمن به حتى مات، حتى رحل، وبرحيله سكنني جوع لليقين الذي لم أملكه طوال جريي العبثي والحثيث خلفه.

لقـــد تناقشت معه دائمًا وبعناد، وحيوية في جلسات الشرب التي كـــنت أســـتمتع بحضورها في بيته ببئر مراد رايس حول تلك القضايا الماورائـــية، وكان هو يتهرب من أن يخوض في سجال لن نصل بحسبه لأي نتـــيجة وإن كـــان يفاجئني بتفكيره النسبـــي في كل شيء، كان يقـــول بأن ما يوجد في الحياة من ظلم، وجور، وبطش يجعله لا يؤمن، وأن ما يوجد أيضًا في الحياة من تضحية، وإيثار يجعله يؤمن، وأنه يعيش بينهما، وكثيرا ما انتقدت نـــزعة الإيمان الغبية التي كنت أراها تمارس كذريعة بالنسبة للفقراء، أو كتقية بالنسبة للمنافقين، أو كطريقة للهرب

www.mlazna.com-رياح الشرق

مـــن مواجهة المشاكل، وتعليقها على قوة السماء، وأحيانًا كنت أقول لـــه: إن الـــسماء لا تتدخل، أو لا تريد التدخل لأن لها مشاغل أهم، فكان يبتسم، وهو يقول كعادته: لا أعرف.

لـــيس هـــناك دائمـــا جواب، الإنسان يعيش وكفى، وقد يشعر بسعادة قليلة في هذا العيش، وأحيانا تكون حياته مجرد عذاب متكرر، ومستنـــسخ، ومستمر، يجب أن نقتنع كما كان يقول بأن الظلمة تقدر علـــى فعل ما نعجز حتى عن فهمه، وكثيرا ما تساءلت: عن أي ظلمة يتحدث؟ وهل كان يقصدني أنا أم يقصد نفسه؟

وكان يردد بأن المتدين الجاهل إنسان سعيد فلم أكن أوافقه في ذلـــك، غير أن أدلته كانت تقوم على أن هذا المتدين متيقن من أن الخـــلاص النهائي للإنسان ربما يكون في مكان آخر، أما بالنسبة له فـــنحن نـــبحث عن خلاصنا في الدنيا لان أرواحنا قلقة، وعقولنا تشك.

كـــان ذلك في زمن الشباب، وأنا أعيش بين مد الحقيقة، وجزر الشك، مترددا، متسائلا، حالما ومندفعا، هاربا من العجز الذي يصيب من يبدأ طريقه بالسؤال والشك..

لقـــد كان عدنان هو الوحيد الذي يقول: ليس ثمة حقيقة في هـــذا الوجـــود، وعلـــى الإنسان أن يؤمن بأن وجوده هو حقيقته الوحيدة.

وأنـــا أرد: بأي معنى؟ إن غياب المعنى عن أي فعل نقوم به يعني غياب القيمة، لماذا لسنا حيوانات إذن؟

فـــيرد عدنان بنفس الجدية التي يتكلم بها دائما: ومن قال لك إننا لـــسنا مجـــرد حيوانات، العقل لا يفعل شيئا مُهما بحياتنا أنظر لنا نحن نعيش ونموت، نولد لنرحل ذات يوم، هذا كل ما في الأمر..

لقـــد مضى على ذلك العهد زمن طويل، وعندما رحت أسترجع تلك الأحاديث، وتلك الذكريات، والكلمات صرت أشعر بتوتر مزعج داخل نفسيتي.

* * *

عجـــيب أمـــر الحياة.. لقد وصلت للذروة فإذا بها تظهر لي كهاوية مفـــتوحة، سرداب مُظلم، قلعة محصنة ولكن فارغة، طريق لا يوجد بعده طريق، كما لو أن الوصول هو النهاية في حد ذاته، والغريب أنني لم أطلب هذه الحياة، أو لم أسع إليها كما لم تكن هذه هي غايتي من وجودي على هـــذه الأرض، في هذه البلاد، ولكن الحياة شاءت أن أذهب حيث لم أقرر الذهاب، أن أصل إلى حيث كان من المفروض أن لا أصل وان أبلغ مرتبة يحلم الجميع بالوصول إلى عتبتها، فها هو السعيد بن عزوز، وقد ازداد قربه مـــني، واســـتغلاله لعلاقته بـــي في زيادة بطشه وتسلطه، في البحث عن مكـــاني بأي شكل، وهو لا يعلم أن أخباره كانت تصلني من كل حدب وصوب، حتى تلك التي يظن أنها لا تصلني، بل حتى الرجل ذي النظارات الـــسوداء أخبرني أنه يراقبني لصالحه فاستغربت من وشايته برجل يتحسس له، فرد بأنه ينبهني فقط لأنه يحرص على بقائي معهم..

"بقائـــي معهم"، لقد بقيت العبارات ترن في أذني، وأنا أتقلب في الفـــراش أنـــا الذي لم أعد أقدر على النوم، كوابيس الحرب والموت، رائحـــة الذكريات التي تجأر بالصيحات المذعورة للمقتولين، والمعذبين والمهجـــرين، والمنفـــيين، ذلك الخراب الذي هو ثمن أي قوة يجب أن تحكم، والثمن يجب أن يدفعه الأقل قوة، والأكثر نُبلا..

كـــنت قـــد فهمت منطقهم دون شك، منطق هذا العالم الصغير الـــذي يحكـــم من خلف ستار حديدي، وفي جانب كبير مني لم أكن

منـــزعجًا من تلك الوضعية، وكل ما هنالك أنني لم أكن صافيًا مثلهم، وقـــادرًا على أن أشعر بلذاتهم تلك، كان يكفيهم أن يكونوا في موضع الحكم الحقيقي ليكونوا بشكل، أو بآخر هم على حقيقتهم، وعكسهم لم أكـــن أعـــرف ما هي حقيقتي، وكانت أحيانا تتحلى في ذكرياتي القديمـــة، في تلـــك الحياة التي قطعت علاقتي بها، أو ظننت أنه يكفي الـــتمادي في قـــتامة العالم، وسواد الحياة حتى يهجرنا ما كنا نؤمن به، ونعتقده..

لكـــن ذلـــك لم يحدث، ووجدتني من جديد داخل تلك الحالة المتمزقة، وشعرت بألم عدم وجود صداقات حقيقية في حياتي، لقد كان الوحـــيد الذي يمكنني التحدث معه في أشياء غير هذه هو عدنان، لكن بسبب تلميحات الرجل ذي النظارات السوداء إثر زيارتي له ذات عام جعلتني لا أفكر في الاقتراب منه ثانية، ولا السفر إليه، ثم كنت أقرأ ما كـــان يكتـــبه في جرائد عالمية عن وضعية البلاد، لقد بقي صوته ينتقد بكل جرأة وما دامت فيه قطرة حياة كان لا بد أن يبلغ ما يريد تبليغه للجميع..

كـــان تفانيه وإخلاصه لموقفه منذ ترك البلاد مختارا المنفى والحرية على العيش حيث يستلذ الحياة في بلده أمرا مثيرا للإعجاب، مسار آخر غـــير مـــساري، كما لو أن الحياة تريد دائما أن تقدم للعالم نموذجين واحـــد يغرف في عتمتها، وآخر يشع بنورها، ولقد كان يبدو لي من بعيد كنقطة ضوء لن أصيرها..

لقد تركت السعيد بن عزوز يترقب فرصته دون شك، إنه يعيش فقط من أجل أن يكون في المكان الذي أنا فيه، وكان يفعل كل شيء، لقـــد انتهت الحرب، وصار له دور آخر في فترة ما بعد تلك السنوات المظلمة من القتل والخوف، إن قوته الآن تكمن في شراء ذمم الذين بقوا

أحياء، سياسيين ومعارضين ومثقفين وغيرهم، وهو الذي يحدد الثمن، أحيانا لا يشتريهم بالمناصب والنقود ولكن بالابتزاز، وكثيرا ما استعمل فتاة أحلامي السابقة رانية مسعودي لتلك المهام، وكانت تقوم بذلك على أحسن وجه، وتنجح في الإطاحة بمن تريد، لقد بقي جمالها الجسدي مثيرا حقا، وكنت أستمع لأخبار مهامها هي الأخرى فأعجب كيف يستحول الإنسان من كائن إلى آخر. إنها المعجزة البشرية بحق، ولاشك أن هناك من سيكتب عن هذه التحولات أحسن مني بكثير..

لم ألقها منذ رأيتها في ذلك الكباريه مع الرجل السمين، ولم أحاول الاتصال بها، بل لم أهتم، ومع ذلك، شيء ما كان يجذبني نحوها باستمرار، لقد كبرت، شعرت بأن شيب شعري كان يعلمني بأن أزهى سنوات العمر ضاعت نهائيا، وأنني بدل أن أستفيد من مكانتي كنت بالعكس من ذلك أغرق في وساوسي وأرقي، دون أن أتمكن من التخفيف ولو بشكل بسيط من صداع رأسي..

كانت عيناي لا تنامان على خطوات السعيد بن عزوز، وضعت له أكثر من مُراقب بدوري يأتونني بأخباره السيئة وينقلونها لي بتفاصيلها المملة، دون أن ينتابني أي إحساس بأنه يشكل خطرا عليّ، ولا بثقتهم فيه، فهو بالنسبة لهم كلب صغير، لا يليق بهم أن يرفعوه لأي مكانة غير التي هو عليها، وأن دوره سيبقى هكذا متلهفا فقط للحس العظام لا غير..

عرفت أن رانية مسعودي تنام في منزله أثارني الخبر بشكل غريب، بل زعزعني بالكامل، وحتى عندما رحت أبرر الموقف بأنها صارت عاهرة، وهذا عملها لم أقنع نفسي بهذا التبرير، لقد اغتظت وكدت أخرج مسدسي، وأذهب لبيته، وأقتلهما معا.. لكنني لم أفعل، بل لم أتحرك، بقيت تحت تأثير ذلك الخبر حزينا جدا ومتوترا.

www.mlazna.com-رياح الشرق

وعـــادت لي تلـــك الذكـــريات المنغصة فجأة، وشعرت بدقات قلبـــــي المزهو ذات زمن بحب عاصف ومتوحش يدندن مرة أخرى، لكـــن كيف لي أن أعود لحالة ظننتها أحيلت إلى عالم الموتى، ولمشاعر أجهضتها تخطيطاتي السيئة، وأفعالي المنكرة..

لقد كان الحب هو هزيمتي المنكرة في هذه الحياة، وللحظة ربطت كـــل تحولي القذر من إنسان إلى إنسان آخر بهذا الضعف.. كم يكون الضعف طريقاً لارتكاب أبشع القذارات، وأسوأ الأفعال غير المنتظرة..

"انـــزع من قلب الإنسان الحب يقدر على ارتكاب كل شيء"، هكذا قال عمي العربـــي مرة وهو يترنح من السكر، كنت أحدثه عن رانية، وأنا شاب، فيقول إن "الحب يأتي عدة مرات، وقد يصيب، وقد يخطأ، ولكن دع الحب دائما نصب عينيك، إنه قوة الإنسان الوحيدة".

لقد خارت قوتي الوحيدة أمام تعنتها هي، لم تفهمني ولم أفهمها، ولقد ربطت قلبـــي بها فنـــزف دمًا، ولم يبرأ أبدا..

هـــا أنا في الخمسين، تنعمت بكل شيء إلا بالحب، الشيب غزا شـــعيرات رأسي القليلة، ثم فجأة، وقد غشيني ظلام حياتي الجديدة فإذا بالـــصورة تستعاد من أرشيف الذاكرة ناصعة وموردة.. صورتها هي، حبـــــي الوحيد والكبير، أو هذا ما تخيلته حقيقتي الوحيدة، وآمنت به كقناعة دائمة.

كـــان من المفروض أن تصنعني تلك الهزيمة النكراء كاتبًا فإذا بها تحـــولني إلى عالم الظلمات الشقية والقاسية. وتتركني هناك وحيدا مع زيف ما أملكه من مال وقوة، لأنني في الأصل كنت مستعدًا لارتكاب الـــشرور أكثـــر من غيري، لقد ناقشت الموضوع كذا مرة مع عمي العربـــــي حول الحتمية التاريخية، والقدر والمكتوب، وكل ما نربط به أحيانا ضلالنا المشين فلم يجبني إلا بعد أن أفرغ كاس الويسكي في بطنه

ثم، قـــال إن الإنسان يختار بوعي ما يريده، وليس هناك قدر مكتوب علينا السير وفق ما كتب لنا في لوح محفوظ..

كـــنت أومـــن بهذا أنا أيضاً، لكن مرات قليلة كنت أكفر بهذه الفكـــرة تمامـــاً، كنت أشعر بأنني لم أكن مخيرا بالتأكيد، وأننا ضحايا اقدارنا لاغير. ثم أثور بسرعة على هذه الفكرة الغبية قائلا لنفسي:

لقـــد إخترت، وانتسبت للشر دون نقاش أو جدل، لم يدفعني لا القـــدر ولا الظروف، ولكن بالتأكيد لعب كل ذلك دورًا، إن الإنسان هو محصلة بيئته، وتاريخه الشخصي..

ســـأردد كل ذلك على نفسي، وأنا في تلك الحالة المتمزقة ذاتها، دون أن أقصد تبرير ما فعلت، أو اخترت، ثم لم يكن ذلك مهما فلربما لو أعدت سيرة حياتي من جديد لقمت بنفس الأفعال، ولاخترت نفس الأشياء دون تردد.

* * *

لـــست أدري ماذا حدث لي، كيف أفسر كل ذلك الألم الخفي الـــذي بـــدأ يقـــض مضجعي، كنت أتخيل كل ليلة جسد رانية عاريا ومستسلما لذلك الذئب سعيد بن عزوز، فلم أعد أطيق الصور المباحة أمام خيالي الواسع والذي راح يتقصدني في كل وجهة أولي لها رأسي، ثم أحســـست فجأة بأنني ضحية مؤامرة، ربما هناك من يضع لي عقاقير لأرى نفس الحلم كل ليلة، لكن من أين لأحدهم الشجاعة كي يقترب مـــني، ويفعـــل ذلك، لم أكن أسمح لأي كان بالدخول إلى منـــزلي، كانـــت غـــرفة نومـــي هي مكاني السري، وهي حياتي الخالصة من الـــشوائب، ومن خلالها أنعم بلذتي الصامتة في عدم التكلم مع أحد آخر غيري..

وأنـــا في تلك الحالة الغريبة والملتوية والمنفتحة على مغارة طويلة الـــنفق تذكرت والدي، وشعرت من جديد بأنني ضحيته، لست أدري كـــيف ولمـــاذا وما دخله في خياراتي التي اخترتها بمحض إرادتي، أو في تلك الظروف التي لم أعد أميز فيها بين خير وشر، بين قبح وجمال، فما أســـهل أن نقـــول: كل شيء يخضع لحرية الفرد، لخياره الفعلي، فيما الحـــياة تجـــبرنا على التحول في كل لحظة من نقطة لأخرى، فبالنسبة للحـــياة لسنا إلا لصوصا هكذا كان يقول صديقي عدنان، نسرق كل شيء منها إلا ما لا نقدر عليه، حتى الهواء الذي نتنفسه نسرقه لا غير، لأنه بقدر ما يبدو ملكية مشاعة للجميع فنحن نأخذه عنوة من الطبيعة، ونسرق الزمن، والزمن يسرق الأعمار، والكل يسرق الكل، وفي النهاية لا أحد يرحم أحدا..

لقـــد برمجنا على الشر، يقول عدنان هذا أيضا فيما كنت أحاول تبريـــر منطق الخير حينها، وكأنني مخلص له وليس لغيره، كنت مراهقا، ومؤمـــنا بالحياة، وبقيمها ثم جاء زمن آخر، وتغيرت، وصرت لا أثق حتى في كلمة خير فما بالك في من يدعيها، ومن يردد أنه يدافع عنها، وسأقول مثلما قال غيري بأنني لو رأيت شخصا يقول إنه خير لقطعت عنقه، لأن من هو خير نادرًا ما يقول ذلك عن نفسه..

لقـــد تغيرت، لقد كان والدي هو السبب، لابد أن أجد لحياتي بعـــض مبرراتها، ولا شك أن كل ما حدث لي كان له جذر في ذلك الماضـــي الغائر في العتمة، والظلمة الشديدة، لكن في النهاية لم أكن إلا شخصًا لا غير، إنسانًا يعيش مع كومة كبيرة من الآدميين، وماذا يفعل الفـــرد في ذلك الموج الكاسح من البشر الأنانيين؟ فهو إما يستسلم لهم كـــي يأخـــذوه إلى حيث يريدون، أو يتفرد عنهم، ويقطع صلته بهم وحيـــنها يتيه، لم أفعل لا هذا، ولا ذاك، لقد خضت حربـــي بمفردي

www.mlazna.com-رياح الشرق

في البداية ضد والدي بالتأكيد، ضد قناعاته، وتاريخه وسلطويته وما كان يمثله أيضا للجميع من شر كبير، وبأس مثير للمخاوف والرعب، ثم انتهت الحرب بصمته هو، بجنونه، أو إدعاءه الجنون، وموته بعدها، موته التراجيدي، الذي حدث، ولم يخلق بداخلي إلا الصمت، نعم ذلك الصمت الذي لا يشبه إلا العدم، لقد ذهب رمز عداوتي وتحدياتي التي كنت أعتبرها مبررات وجودي، تركني لوحدي في حلبة الصراع، وترك فيّ ميله القوي للظلام الكثيف، موته كان ربما فاتحة لحركتي الداخلية نحو تقليده، بوعي أو من دونه، لقد شعرت أن الحياة في جزء كبير منها ظالمة، ومن الأفضل أن تكون ظالما على أن تكون مظلومًا، قاهرًا على أن تكون مقهورًا، قويا على أن تكون ضعيفا، ويمكن لغيري ممن يتوهمون أمورا أخرى عن الحياة تفسيرها عكس ما أذهب إليه.

لكن فيما بعد، وقد اخترت هذا الطريق، خضعت لمن يشبهون والدي، أو أبشع منه، لقد فهمت حينها شيئا أساسيا وهو أن من يسير في هذا الطريق لابد أن يقبل في عميق أعماقه الخضوع لقوة أكبر منه، بل خضوعه هو طريقه، كلما خضع كلما زادت قوته، أو اقترب من منبع القوة الأكبر منه، وكانت هناك دائما قوى أكبر، لقد شققت طريقي بهذا الشكل، وعندما كنت أتحدث عن مساري من بني آدم إلى مصاص دماء لم أكن أكذب، لقد كان تخيلي حقيقي للغاية، كان مثل كابوس، فكل ما كنت أفعله في الواقع يُصبح شيئا قريبًا من مص الدماء البشرية، ولقد شربت منها حتى ارتويت، وحققت من خلال ذلك الفعل الآثم جبروت لحظتي تلك، ثم أصبحت آكل لحم بشر، وسيقول البعض إنه مزاح، سخرية، مجرد كلمات فضفاضة أما أنا فلن أبالي بهذا الكلام، ثم ما همي إن صدقتموني أم لا فبالنسبة لي فقد أكلت لحم البشر وهم أحياء، حتى أنني ساهمت في انتشار ظاهرة الكانيبالزم

حينها، وكان الناس يأكلون بعضهم بعضا أكلا مخيفا في كل لحظة من أعمـــارهم التي كانت تمر، والشيء الوحيد الذي تخيلته، وحلمت به، وكان حلمًا مرعبا للغاية، هو أنه في يوم من الأيام وقد صار أكل البشر متاحا للجميع كان عددنا يتناقص حتى لم يعد هناك إلاي وأحد حرسي الـــذي حـــاول قتلي فجأة فانقضضت عليه، وأكلته هو الآخر فلم يبق مخلـــوق بشري في هذه البلاد الواسعة والكبيرة، فإذا بـــي وقد مسني الجـــوع لعـــدة أيام رحت ألتهم نفسي فجأة، واستيقظت وقد وصلت للفخذ فهالني المنظر حينها..

لم يكن قتل الرجل السمين بالأمر الهين رغم ما ادعيته من بساطة التنفيذ، والحق لقد فكرت في قتله قبل ذلك بكثير، أي قبل أن يأمرني الـــرجل ذو الـــنظارات السوداء بذلك، فكرت وأنا تحت سلطته وفي خدمته وحياتي بين يديه، والحق أنه بعد سنوات الخدمة صادقني قليلا، وكـــنت أشعر إلى جانب الخوف منه بحنو أبوي من جهته، وهذا ما كـــان يؤجج في صدري فكرة القتل تلك، وبمجرد أن يشعر الواحد بمقدرتـــه على القتل يسأل نفسه عدة مرات لماذا لا يفعل ذلك، فما أهـــون تلـــك الفعلة القبيحة إن نعتناها بوصف سيء، لكن لم أفعل، ومـــرة تحت تأثير عمي العربـــي وهو يتكلم عن الفساد المعشعش في قمة الهرم حتى انتابتني حمى غريبة، وقلت سأقتلهم جميعا وأنهي مشكلة الفساد تلك، وأجعل عمي العربـــي يفرح ويهنأ ويعيش ما بقي له من حياة في طمأنينة وسعادة، لكن في أعماقي المظلمة لم أكن أجرأ على فعل شيء إلا بما يأمرونني به هم، وكنت أحس بأنني لا أساوي شيئا لو فقدتهم الآن، وأنني مجرد غبار من دونهم، أي ريح هزيلة يمكنها أن تقـــتلعني من المكان الذي أكون فيه، لقد تطلب منهم بناء تلك القوة الغامضة جهدا معتبرا دام لعقود وسنوات، ولا يمكن لما سأفعله أن يغير

قـــيد أنملـــة من مسار الحياة التي سارت على هذا المنوال. إنها حكمة الظلام.

لقـــد رتبت حياتي بعد أن غاصت في تلك الوحول والمستنقعات بحـــيث لم يعد هناك أي منفذ يتسلل منه هواء الحياة الطبيعي، غير أن تحـــصيناتي كلها لم تنفعني في شيء، وأنا أستعيد صورة رانية مسعودي، وقـــد كانـــت حبـــي الأقوى والأكبر، و لم أجد ما أفعله أمامها، لقد هزمتها الحياة أكثر مني، بينما أعطتني الكثير، لكنها بالمقابل لم تمنحني ما أبحث عنه، وإنه لشيء مخجل أن أعترف، وأنا في قمة جبروتي وبطشي الذي يرعب الملايين أنني مستعد لأن أترك هذا كله يغرق من أجل أن أنال شرف حبها..

وبيـــنما كـــنت أفكر على هذا النحو جاءني مرسول منها يطلب رؤيـــتي، فظننت أنها النهاية بالتأكيد، أو أنها ساعة الانتقام قد حانت، وأنهـــا تريد أن تأخذ ثأرها مني، وفرحت أيما فرح، وقد يعجب البعض من ذلك أيما عجب، أما أنا فلا، فلقد رغبت أن تكون نهاية رحلتي على يـــدها هـــي، لتقتلني من أحببتها بجنون وعذاب كبير، ولتأخذني للعالم الآخر بيديها الطاهرتين أحسن من أن يقتلني ذلك المتربص العنيد سعيد بن عزوز وهو ينتظر فرصته بالتأكيد ليأخذ مكاني..

لكن الأمور لم تسر في هذا الاتجاه عندما لقيتها في مطعم برياض الفتح، ولقد بدت لي جميلة كالعادة رغم ما أخذه الزمن من نهائها القديم، وجلسنا معا، قالت لي بداية إنها سامحتني على ما فلعت، وإنها الآن تعمل لـــصالح الـــنظام مع سعيد بن عزوز، ولكن بقي أمر خاص تريدني أن أعرفه فقلت لها: تكلمي، أنا هنا لأسمع كل ما تودين قوله لي..

صمتت قليلا ثم تكلمت:

- أقصد ابننا عدنان..

www.mlazna.com-رياح الشرق

ظننت في البداية أنها نطقت "ابننا" سهوا، ولكن بينما هي تكمل حديثها استمرت تتحدث عن ابنها كما لو هو ابني أنا أيضا فقاطعتها متسائلا:

- لماذا قلت ابننا؟

- لأنه ابننا معاً.. لم أخبرك بذلك لأنني كنت غاضبة منك، ولكن زوجي عرف الحقيقة لأنه لا ينجب وهرب بعدها وتركني لوحدي في ذلك الكوخ الحقير..

وأضافت مبتسمة:

- رغم ألم الفراق إلا أنني في النهاية فرحت لأنه تركني وهرب، لقد كشف عن وجهه الحقيقي..

بقيت شارد الذهن للحظات وهي تغوص في حديث تلك الفترة البائسة من حياتها الصعبة ومشاكلها التي واجهتها بعناد ومقتل أخيها في الجبل، ثم وصلت للنقطة التي كانت تريدني أن أعرفها حين قالت:

- عندما بلغ عدنان التاسعة عشرة من عمره فرّ من البيت، وعرفت أنه التحق بالمتمردين في الجبل، لقد حز في نفسي أنه لم يختر إلا هذا الطريق السيئ، لم يكن شابًا متحمسًا للدراسة، وظل طوال فترة الحرب يريد أن يصعد للقتال مع المتمردين، ورغم أنني نجحت في إقناعه عدة مرات بعدم الذهاب، إلا أن الجماعة التي كان يخالطها أثرت فيه أكثر مني، خاصة وأنهم كانوا يملأون رأسه بالأكاذيب عني..

تفجرت دموعها فجأة فصمتت، بينما بقيت أنا مشدوها للحكاية التي تحكيها لي، بوقعها الغريب على نفسيتي لتقول من جديد:

- لقد صعد إلى جبل وبينما نزل الجميع، بقي هو هناك مع فرقة قليلة العدد، بعث لي رسالة يخبرني فيها بأنهم توعدوه

بالقـــتل إن عـــاد إلى الحياة المدنية، وحينها فقط أخبرته بأنك والـــده، وأنك رجل قوي جدا في البلد، ولن يناله أي شر من أي أحد..

بعـــدها صـــمتت نهائياً، وهي تغرق في دموعها الملأى بالحسرة والحزن..

أيقـــظ كـــل ذلك بداخلي شخصًا آخر، أبًا نائما لم يكن له أي وجـــود قـــبل أن أسمع هذه الحكاية. وعدتها أن أفعل كل ما بمقدوري لإنقاذه من ورطته تلك، وطلبت منها أن تصحبني للبيت لكي تكون في حمـــايتي، فترددت قليلا، ثم قالت: أو لم تسمع بأنني متزوجة من سعيد بن عزوز..

نـــــزل الخـــبر علـــيّ كالصاعقة، وارتبكت، فقدت تلك القوة المعاندة التي كانت تجعلني في مأمن من مكر المشاعر المتقلبة والأحاسيس المـــتلونة بـــين ظرف وآخر، فلم أكتم غيظي وأنا أصرخ: - لماذا تزوجته؟

بقـــيت جامـــدة، وقد رأت ذلك الشرر المتطاير في عينيّ دون أن تفهم سره، ولم تجبني بشيء، فلقد زاد حزنها فجأة، وخوفها كذلك، مما اضـــطرني للصمت من جديد، وأنا أقول في داخلي: اللعين، فعلها، ولم يصلني أي خبر من أي جهة كانت..

تركت رانية لحالها، وعدت للبيت، طلبت من أجهزتي الاستعلام عن المكان الذي يختبأ فيه عدنان والجماعة التي ينتمي إليها، وتوفير قوة للـــذهاب إلى ذلك المكان فورًا، فلم يتطلب الأمر إلا ساعتين، وكنت أركب مع حرسي الخاص سيارتي، وأتوجه لجبل في عين شنوة..

صـــحيح لقد خطرت ببالي أسئلة غريبة حينها، ماذا سأفعل بابن أعطيته للحياة دون أن يكون ذلك قصدي، ابن ضل الطريق، وسار مع

المتمـــردين ضدي، وأمه تتزوج ألد أعدائي، وتبقى وفية لكراهيتها لي حتى لو ادعت أنها سامحتني..

ماذا أفعل غير أن أخرجه من تلك المخالب، وأرشده لطريقي..

وصـــلنا لعـــين المكـــان، كانت قوة من الجيش تحاصرهم، وقال ضـــابطهم: إنهاجماعة تتكون من خمسة أفراد فقط ولكن قد يفعلون أي شيء لو كان بحوزتهم قنابل..

طلـــبت مـــنهم أن يعطوني مكبر صوت حتى أتحدث أنا مع ابني عدنان، وسرعان ما أحضروالمكبر ورحت بصوت غليظ أطلب منه أن ينـــزل ويسلم نفسه، وأنا سأؤمن حياته، وحياة من معه..

لم يـــصلني أي رد فأعدت التجربة مرة ومرتين حتى سمعت صوتًا يهتف طالبا مني الصعود إليهم إن كنت صادقا في كلامي..

قال لي الضابط: لا تصعد.

قال أحد حراسي الشخصيين: إنه مجرد فخ.

أما أنا فلا أدري لماذا قررت الصعود.

ربمـــا في تلـــك اللحظة كنت بحاجة لشيء أقوى مني ليبرر لي أن هـــناك معنى للحياة، ولو في أفعال بسيطة كنت أدرك أن ثمنها سيكون باهضا جدا..

تـــركتهم خلفـــي، وصعدت عبر تلك الأشجار المتشابكة بعضها البعض، الملتوية فيما بينها وهي تعقد حزاما ساترا لحماية هؤلاء الشباب المتمـــرد الـــذي رفـــض منطق الظلام المفروض عليه ليغرق في ظلامه الآخر..

مـــا إن وصـــلت حتى رأيت رجلين يحملان بنادق صيد أمراني بمواصـــلة الصعود فأكملت طريقي لأعلى الجبل المغطى بأشجار كثيفة هـــو الآخر حيث كانت هناك مغارة، رأيت عدة شبان يقفون منحني

www.mlazna.com-رياح الشرق

الـرؤوس قربها وهم مستعدون لمواجهة قدرهم بشجاعة كاملة، وهناك خرج ذلك الشاب الذي قال إنه عدنان..

- لقد جئت..
- نعم جئت..
- مرحبا بك..
- أمـك هي التي طلبت مني أن أحضرك للبيت، إنها تريدك إلى جنبها..
- أعـرف، لكن أمي لا تفكر مثلي.. إنها لا تعرف أنني لم أعد أنتمي إلى عالمها..
- أي عالم تريد أن تنتمي إليه..
- هذا العالم الذي تراه أمامك، نعيش بحرية، أو نموت من أجل قضية حقيقية، ومكافأتنا هي ما ينتظرنا في السماء..
- لماذا طلبت مني الصعود إذن..؟
- لأننا نريدك رهينة، أنت من سيفك الحصار عنا..
- أتظـن أن كل شيء بيدي أنا لوحدي؟ أنا هو السيد بالفعل؟ كلنا دمى تتحرك لغايات، وأغراض محددة، وعندما تنتهي مدة عملها، أو تقرأ أدوارها سرعان ما تستبدل بدمية أخرى، هناك المـئات من ينتظرون دورهم لكي ينسفوا هذه الدمية القديمة، ويحتلون مكانها..
- أنت تعرف بأن قضيتنا عادلة..
- لقد رأيت أناسا مثلك في زمن سابق ناضلوا بأسماء أخرى، ومن أجـل قـضايا مختلفة والآن جاء دورك، ربما هي سنة الحياة، أن يناضـل الـناس ولكـن الأمور ثابتة لا تتغير، الحرب خسرتها جماعتك، وأنتم الآن مجرد لقطاء لا تعرفون حتى كيف تحاربوننا..

نطق فجأة شخص كان مختفيا في المغارة:

- المهم سنموت أحرارا، وأنت ستموت كالكلب..

لم يزعجني ذلك الوصف، كان هينا مقارنة مع ما كنت أشعر به نحو نفسي، وقلت له:

- نعم كالكلب.. بل سنموت كلنا كالكلاب الآن في هذا المكان المتوحش، وسيأتي آخرون مكاننا ليلعبوا نفس التمثيلية..

- هذه ليست تمثيلية..

- سأكلم ابني فقط.

نظر إليّ عدنان بتمعن، وأنا أقول له:

- أريدك أن تقتلني أنت، وليس غيرك..

تقدم عدنان مني ووضع فوهة البندقية على جبهتي، ثم نظر للرجل الذي كان يختبأ في المغارة ينتظر أمرا بتنفيذ حكم الإعدام في حقي، وبينما كانت الفوهة تداعب جبهتي كانت حياتي كلها تمرق كشريط سينمائي قدام عينيّ، كنت أنظر لنفسي طفلاً ثم مراهقًا ثم شابًا ثم رجلاً ثم وحشًا أكل الظلام كل ما كان في روحه من بقايا أنوار قديمة حتى سمعت صوته يقول:

"مُت يا كلب"

وبدل أن تنطلق رصاصة البندقية لتدفعني إلى العالم الآخر، وأرحل نهائيًا عن هذه الحياة، انطلقت رصاصات الرشاشات من كل جهة وسقطوا جميعهم مقتولين على الأرض دمائهم تسيل، وعيونهم تبرق.

دمية النّار

رواية

بشير مفتي

• روائي من الجزائر

صدر له

- «بخور السراب»
- «أشجار القيامة»
- «خرائط لشهوة الليل»
- «أرخبيل الذباب»

كثيراً ما قرأت عن تجربة القتل الأولى في حياة أي قاتل، لقد قيل إنها الأصعب، بينما كانت الأسهل بالنسبة لي، ولم أفهم لماذا؟ ربما لأنني لم أرد أن أفهم... ثم أن العتمة كانت تغطي كل مساحة الضوء، كنت أراه وبالكاد أراه، كان صوته يخترق طبلة أذني ولكنني لم أكن أسمعه، كانت الرياح تهب من هناك، لست أدري من أين بالضبط، وتطرق زجاج النافذة، ولم أكن أسمعها، كان رأسي في قلبي، وقلبي في زاوية معتمة، وكان كل شيء ملفوفاً بتلك العتمة التي لا أعرف من أين نزلت بدورها. فقط كانت تحجب عني الوجه، أقصد القلب، أقصد اختلاط الإنسان بالإنسان، وما قد يخلقه ذلك من توتر، حيوية، إنسانية لم تعد فيّ، لم أعد أقبلها فيّ، حالة غامضة قريبة من حالة الجنون، مع أنني لم أكن مجنوناً، ولا سيء الطوية، كنت أنفذ الأوامر، وتحت سلطة تأثير أقوى من أي جاذبية أخرى في هذا العالم. لقد بدا الأمر سيئاً بمذاق لا طعم له، كأنك تعظ على الماء فيسيل، كأنك ترمي بنفسك من علوّ كبير فلا تتكسر ولا يساورك بعدها أي إحساس، تغفو يقظاً، تستيقظ غافياً، يختلط الزمن فلا يعود يمشي على رجليه ولكن على رأسه.

من الرواية

تصميم الغلاف: سامح خلف

ISBN 978-614-01-0048-0

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل و فرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com

www.mlazna.com-رياح الشرق